العلاقات المكية السودانية عبر التاريخ



د/ سيد احمد علي عثمان العقيد

استاذ مشارك في التاريخ الحديث المعاصر

كلية الآداب - جامعة النيلين

العلاقات المكية السودانية عبر التاريخ

د/ سيد احمد علي عثمان العقيد
استاذ مشارك في التاريخ الحديث المعاصر
كلية الآداب - جامعة النيلين

العلاقات المكية السودانية عبر التاريخ

إعداد

د. سيد أحمد علي عثمان العقيد

عميد مكتبات جامعة النيلين

أستاذ مشارك في التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب – جامعة النيلين

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

2006

ملخص بحث

إن هـذا البحـث يجـيء في إطـار أن مكـة عاصـمة للثقافـة الإسـلامية ١٤٢٦هـ ومـشاركة مـن الباحـث في النـدوة الكـبرى بهـذا الخـصوص. ويؤكـد البحـث علـى أن مكـة كانـت ولا تـزال وستظل هـي محـور التـأثير علـى كـل مـن حولهـا مـن أقطـار الأرض ثقافيـاً وفكريـاً وروحيـاً واجتماعيـاً واقتـصادياً. وظلـت تتـأثر بالـسودان ويـؤثر فيهـا الـسودان عـبر التـاريخ الطويـل، منـذ أن صـاح إبـراهيم بدعوتـه المباركـة ﴿أنـي أسـكنت مـن ذريـتي بـواد غـير ذي زرع عنـد بيتـك المحـرم ربنـا ليقيمـوا الـصلاة فاجعـل أفئـدة مـن النـاس تهـوي إلـيهم وارزقهـم مـن الثمـرات لعلـهم يـشكرون﴾ سـورة إبـراهيم الآيـة (٣٧) ومنـذ تلـك اللحظـة أضـحت مكـة هـي مهـوى الأفئـدة وظلـت علاقتهـا بالـسودان علاقـة عـضوية. ومنـذ تلـك اللحظـة ارتبطـت مكـة بالـسودان ارتباطـاً عرقيـاً وثقافيـاً فلـم تكـن هـاجر أم إسماعيـل سـوى نوبيـة سـودانية. ولعـل مـن أقـوى الأدلـة اسـم مكـة (بكـة) و (زمـزم) اللـذان لهمـا صـلة وثيقـة بهـاجر ومعاناتهـا. وهـي جـدة العـرب ولله در ابـن عربـي حـين نـاقش هـذه القـضية في كتابـه القـيم أحكـام القـرءان الجـزء في تفـسير سـورة النـساء [1] فأبـان فيها بما فيه الكفاية.

وظلـت العلاقـات المكيـة الـسودانية عـبر التـاريخ تـزداد قـوة ومتانـة. ونتيجـة مـصاهرة بـين أشـراف مكـة وأسـر سـودانية حاكمـة توجـت هـذه

(١) الآية (٢٥).

العلاقة بحكم مكة وأشرافها لسواكن السودانية حيث انتقل إليهم الحكم عن طريق أخوالهم في السودان الأرتيقة (الأشراف). ونتج عن ذلك وجود مكي كثيف نتيجة هذا الحكم لجزء من السودان الحالي. وبذا زاد الارتباط قوة ومتانة وظل السودان يرفد اقتصاد وإنسان مكة ونظامها الحاكم بخيراته وبمحمله السنوي وهو عبارة عن مؤن ومواد تموينية. وظلت مكة ترفد السودان بتيارتها الثقافية والفكرية والروحية والصوفية. وغدت بمثابة محطة الوقود للسودان فالصوفية السودانية جاءت عن طريق مكة، فكل قادة التصوف في السودان وجدوا طريقهم إلى السودان عبر منفذ مكة. فكانت مكة هي البوابة أو النافذة التي أطل منها التصوف على السودان، والعلم والزهد انتقل إلى السودان من مكة أيضاً، وبعضاً من الهجرات العربية جاءت السودان من مكة وعن طريق المجاورة التي درج قادة الفكر والتربية والثقافة في السودان عليها كانت بمثابة الدافع القوي لكل ما حدث ويحدث من تغييرات في وجدان ومضمون فكر السودان والشعب السوداني عبر التاريخ.



مقدمـــة:

١ – مشكلة البحث:

يعتـبر هـذا البحـث بهـذه الكيفيـة وبهـذا القـدر مـن المعالجـة محاولـة جديـدة لتكـون رائـدة وأشمـل، متجـاوزاً أطـر الدراسـة التقليديـة في مجـال البحـث التـاريخي مـستخدماً أدوات ووسـائل تعبيريـة لغويـة حديثـة قـد تبـدو غريبـة لـدى بعـض البـاحثين ولكنهـا ضـرورية لـربط الماضـي بالحاضـر أثنـاء معالجـة قـضايا ذات بعـد تـاريخي واجتمـاعي وثقـافي وفكـري. والإنـسان ابـن بيئتـه يتـنفس فيهـا ويتعـاطى مفرداتهـا بإيجابية.

ولقـد تعامـل البحـث مـع هـذه المفـردات بإيجابيـة وبفاعليـة بعيـداً عـن القوالـب التعبيريـة التقليديـة. ولعـل مـشاكل هـذا البحـث عـدم وجـود دراسـات أكاديميـة عالجـت هـذه القـضية في إطـار وحـدة موضـوعية، بـل نجـد أن المعلومـات المتعلقـة بهـذا الأمـر متنـاثرة في عـدة مراجـع ومباحـث ويهدف إلى جمع هذا المتناثر في وحدة موضوعية بين دفتي سفر واحد.

٢ – أهداف الدراسة:

تهـدف هـذه الدراسـة إلى إيجـاد مـستوى مـن الأبحـاث والدراسـات الأكاديميـة الـتي تـؤطر لمتانـة العلاقـات الخارجيـة بـين الـسودان والأقطـار الـشقيقة المجـاورة، لاسـيما المملكـة العربيـة الـسعودية الـتي تـضم في حناياها أعظم بقعة على وجه الأرض.

وفي ذات الوقـت تؤكـد علـى محوريـة مكـة المكرمـة باعتبارهـا

أولى القبلتين ومهوى أفئدة المسلمين في العالم الإسلامي، وتشير الدراسة إلى مدى خصوصية العلاقة المكية السودانية عبر التاريخ.

٣ – أهمية الدراسة:

تنبع أهمية هذه الدراسة في أنها تشكل لبنة ضرورية ولازمة لبناء دبلوماسية على أسس تاريخية وعلمية ذات منظور أكاديمي، ويعتبر هذا البحث من هذا المنظور أول دراسة على حسب علمي، تجمع أطراف هذا الموضوع تحت هذا العنوان بين دفتي وحدة موضوعية بحثية وفي سفر واحد على هذا القدر من الاستقصاء والتحليل والاستقراء.

٤ – فرضية البحث:

إن العلاقات السودانية المكية هي علاقات أزلية ذات بعد استراتيجي ومنظور تاريخي هام لا يمكن تجاهله أو تجاوزه تحت أي ظرف من الظروف، وهي علاقة ذات أبعاد جغرافية وثقافية وعرقية ودينية.

إن مصطلحات: (السودان/ الحبشة/ أثيوبيا/ كوش). هي في الغالب الأعم تعني السودان الحالي بصورة أو أخرى بدرجات متفاوتة وبنسب متقاربة. كما أن الهجرة الأولى والثانية كانت إلى السودان الحالي سودان وادي النيل لأن ميناء الشعيبة منفذ مكة الوحيد يومئذ. وهو أقرب من الناحية الجغرافية لعيذاب وسواكن السودانية من أي ميناء حبشي آخر كمصوع وزيلع.

كما أن السودانيين الحاليين هم خليط بل مزيج من الزنوج والحاميين والعرب الساميين ماعدا المناطق الجنوبية التي يغلب عليها الدم الزنجي والحامي، ويغلب الدم العربي على ما سواه من الدماء الأخرى في معظم أنحاء السودان دون منازع.

ولقد شكل السودان الحالي منفذاً هاماً بالنسبة لمكة في الجاهلية والإسلام ولعب دوراً اقتصادياً واجتماعياً وعرقياً بارزاً، وظل التبادل التجاري والثقافي والعرقي هو المظهر الأبرز في تاريخ العلاقات بين كل من السودان ومكة عبر القرون.

٥ – حدود الدراسة:

تتناول الدراسة علاقات مكة بالسودان عبر القرون من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والعرقية منذ فجر التاريخ، بيد أنها تتركز بصورة أدق وأعمق في الفترة الإسلامية منذ البعثة النبوية وحتى الثلث الأول من القرن الرابع عشر الهجري/ القرن السابع الميلادي وحتى الربع الأول من القرن العشرين.

٦ – منهج الدراسة:

المنهج المستخدم في هذا البحث هو منهج البحث التاريخي القائم على الوصف من حيث جمع وترتيب المادة الخام من مصادرها الأولية أو شبه الأولية ومحاولة الاستقصاء والاستقراء والتحليل وفق منهجية منطقية تقوم على عرض ومقدمة ونتيجة. ولقد استخدم الباحث مادة كثيفة من حيث الموضوع ومن حيث المعالجات تمثلت في

وثائق موزعة بين كل من السودان ومصر وبريطانيا. كما استخدم مصادر إسلامية تاريخية وشرعية حيثما اقتضى الأمر. وتوفر الباحث أيضاً على استخدام مراجع عامة عربية وأجنبية. وحاول بقدر الإمكان أن يلتزم المنهجية في المعالجة والاستقصاء والتحليل وأن يخلق من الكم الهائل المتناثر من المعلومات وحدة موضوعية وفق منظور أكاديمي في إطار ضيق زماناً ومكاناً من غير إسهاب أو إيجاز مخل وفي عجالة اقتضتها الظروف الزمانية والمكانية وطبيعة مناسبة الاحتفال بمكة عاصمة للثقافة.

٧ – الدراسات السابقة:

معظم الدراسات التي اعتمدها الباحث والتي تم الاعتماد عليها لم تكن ذات اهتمام خاص بهذا الموضوع وبهذا التحديد، وإنما أوردت معلومات عنها في سياق معالجة قضايا أخرى عامة. فكانت مهمة الباحث كمهمة الهدهد أن يلتقط الحب من تحت الأرض. وبالتالي فإن هذه المعالجة لا تعدو عن كونها محاولة لموضوع أكبر ولدراسة أعمق أني سر الله الإمكانات وأمد في الأعمار.

ولا ندعي كمالاً وإن كنا نأمل أن يكون هذا البحث جامعاً مانعاً في موضوعه إلا أن الكمال لله وحده.

٨ – أقسام البحث:

لقد تم تقسيم هذا البحث إلى وحدات موضوعية بحثية تقدمتها عناوين جانبية تشير إلى المحتوى. فبدأ البحث بتحرير

المصطلحات الجغرافية وتحديد دلالتها. وهي بداية منطقية لأن كثيراً من مقررات البحث ونتائجه قد تتأثر إيجاباً وسلباً بهذه المسلمات الابتدائية. كما أن هذه المصطلحات الجغرافية تعتبر مداخل ومفاتيح هامة للبحث من الناحية الأكاديمية البحتة. وهي تدخل في مجال تحقيق المناط وتحديد الإطار الموضوعي للبحث.

ثم عرض البحث للعلاقات المكية قبل الإسلام. وأكد على أزلية هذه العلاقة. كما عرض البحث إلى العلاقات المكية السودانية من الناحية الثقافية والاجتماعية والدينية والعرقية والاقتصادية في عصري سلطنة الفونج وسلطنة الفور الإسلاميتين حيث حكمت الأولى السودان الشرقي حوالي (٣١٨) سنة والثانية تمتعت بنفوذ ووجود لمدة خمسة قرون من الزمان في منطقة دارفور الحالية.

وتناول البحث العلاقات العرقية والسياسية والثقافية التي جعلت مكة لفترة من الزمن تهيمن سياسياً وإدارياً ودينياً على سواكن.

كما تعرض البحث للأثر المتبادل بين مكة والسودان الحالي من حيث ورود الطرق الصوفية إليه من مكة أو ورودها من السودان إلى مكة مرة أخرى. وكذلك النشاط العلمي والثقافي المتبادل بين الطرفين عطاءً وأخذاً عبر العصور الإسلامية المختلفة.

الخلفية التاريخية وتحرير المصطلحات:

١- السودان:

هذه المقدمة ضرورية نسبة لتداخل بعض المصطلحات جغرافياً وسكانياً في الإرث التاريخي اليوناني والروماني والمصري القديم والعربي والإسلامي ومن ذلك مصطلحات (السودان، أثيوبيا، الحبشة، كوش) [(١)].

ويعتقد أن المصريين القدماء هم أول من وضح اسم السودان على البلاد التي تليهم من الجنوب.وقد أطلقوا عليها كلمة (The Nahesu) ومعناها أرض السودان [(٢)]. كما أطلقوا على هذه المنطقة أرض كوش، ويؤيد ذلك أن هذه العلاقة قد وردت في الآثار المصرية بأكثر من نطق وبخاصة في تل العمارنة في جنوب مصر في القرن السابع عشر قبل الميلاد.

ولما كانت معلومات المؤرخين قد تأثرت بإرث الثقافات المحيطة، نلاحظ أن المؤرخين المسلمين الأوائل قد أكدوا وأثبتوا هذه الحقيقة التي تبدو واضحة فيما كتبه اليعقوبي عن أصل السودان حيث قال: (وكان ولد حام بن نوح قصدوا عند تفرق ولد نوح من بابل

(١) سيد أحمد العقيد: العلاقات المهدوية الحبشية/ السودان/ أم درمان/ ج أم درمان الإسلامية/ كلية الآداب، ١٩٩١م، رسالة دكتوراة (غير منشورة) ص١- ١٠.

(٢) عبد العزيز أمين عبد المجيد: التربية في السودان والأسس الاجتماعية والنفسية، مصر، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٤٩م، ج١، ص٣. وانظر: عبد القادر محمود: الفكر الصوفي في السودان، مصادره وألوانه، لبنان، بيروت، دار الفكر العربي ١٩٦٨- ١٩٦٩م، ص٩.

إلى المغرب فجازوا من عبر الفرات إلى مسقط الشمس وافترق ولد كوش بن حام – وهم الحبشة والسودان لما عبروا نيل مصر – فرقتين: فقصدت فرقة منهم التيمن بين المشرق والمغرب وهم النوبة والبجة والحبشة والزنج: وقصدت فرقة المغرب وهم الزغاوة والمحس والفاقو والمريوت ومرندة والكوكو وغانة، فأما النوبة: (لما صارت في الجانب الغربي من النيل وتجاوزت مملكة القبط، وهم ولد بيصر ابن حام بن نوح، تملكوا هناك فصارت النوبة مملكتين فإحداهما مملكة الذين يقال لهم (مقرة) وهم في شرق النيل وغربه ومدينة مملكتهم (دنقلا) وهم الذين سالموا المسلمين وأدوا إليهم البقط (بفتح الباء وسكون القاف وهو أن تعطي الرجل البستان على الثلث أو الربع) وبلادهم بلاد نخل وكروم وزرع [(١)].

هذا ما أورده اليعقوبي من تعريف للقبط وإن كان الغالب في تقدير الباحث أنها ضريبة أو جعل محدد بمقادير معروفة في كتب التاريخ مقابل الأمان وعدم الاعتداء عليهم من قبل المسلمين. أما البجة (فلهم قبائل وبطون كما تكون للعرب فمنهم "الحدارب" [(٢)] وحجاب والعمامر وكوبر ومناسة ورسفة وعريريعة والزنافج). وفي بلادهم

(١) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر: الكاتب المعروف بابن واضح الأخباري الشهير باليعقوبي. (ت ٢٩٢هـ)، تاريخ اليعقوبي، العراق، النجف، المكتبة المرتضوية، مطبعة الغرى، سنة ١٣٥٨م، الجزء الأول، ص١٥٥.

(٢) هم من الحضارمة جاءوا إلى السودان في القرن السادس الميلادي، وكانت ديانتهم الوثنية وتبعاً أو تشبهاً بمخالطيهم البجة فقد اعتنقوا المسيحية. وفي القرن العاشر الميلادي اعتنقوا الإسلام. انظر:
Paula, History of the beja tribes of the sudan, Cambrige. ١٩٥٤. p, ١٢.

المعادن من التبر والجوهر والزمرد، وهم مسالمون للمسلمين والمسلمون يعملون في بلادهم في المعادن[١] ويشير المؤرخون العرب والموسوعيون منهم من أمثال ابن الوردي والجاحظ وابن حجر إلى أن ذا النون المصري الصوفي كان نوبياً، وأن سعيد بن جبير وبلال الحبشي هم من النوبة وأن بلالاً أمه حمامة وهي من دنقلا الحالية بشمال السودان حسب ما أورده ابن حجر في كتابه فتح الباري[٢]. ولا يخفى البعد الجغرافي والمكاني بين شمال السودان الحالي والحبشة الحالية. وبالرغم من ذلك تصف المصادر بلالاً بالحبشي.

والسودان جمع أسود وهي البلاد التي يقطنها السود من أفريقيا، ولكن جرت عادة مؤرخي عصور التنوير الإسلامي أن يطلقوا عبارة بلاد السودان على الأقاليم الواقعة جنوب الصحراء الكبرى ومصر، والتي تمتد من الرأس الأخضر في المحيط الأطلنطي إلى مدينة مصوع على سالح البحر الأحمر. أما جنوباً فتحد بالأقطار المحيطية في أفريقيا الغربية وبحوض الكونغو الأدنى وكذلك بالبحيرات الاستوائية، وكانت هذه البلاد إلى بداية القرن التاسع عشر تشمل ممالك سنار ودارفور ووادي وكانم وبرنو وسكوتو وتمبكتو ومالي.

---

(١) اليعقوبي: مصدر سبق ذكره، ج١، ص١٥٥.

(٢) عبد القادر محمود: الفكر الصوفي، ص١٠، سيد أحمد العقيد: العلاقات السودانية الحبشية، ص٣٠. انظر: هامش ٣١.

وتنقسم هذه البلاد إلى ثلاث مجموعات:

١- السودان الغربي: ويشمل حوض السنغال وغامبيا وأعالي نهر الفلتا وأواسط النيجر.

٢- السودان الأوسط: ويشمل حوض بحيرة تشاد.

٣- السودان الشرقي: وهو ما عرف في بداية القرن الثالث عشر الهجري/ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي والنصف الأول من القرن العشرين بالسودان المصري والإنجليزي، والذي تم تحديد حدوده بموجب اتفاقية ١٣١٦هـ الموافق ١٨٩٩م، حيث حددت السودان الحالي شمالاً بخط العرض ٢٢ ومن الشرق البحر الأحمر وبلاد أريتريا والحبشة، ومن الغرب والجنوب الغربي الصحراء الكبرى وبلاد وادي تشاد والجبال المتوسطة بين نهر الكونغو وبحر الغزال. ومن خلال النظر المتفحصة على هذا التحديد نلاحظ أنه غير منتظم، طوله من الشمال إلى الجنوب ١٢٠٠ كيلو متراً ومن الشرق إلى الغرب ١٠٠٠ كيلو متراً [١].

أن هذا التحديد بهذه الدقة التي ذهب إليها عبد العزيز أمين يخالفه فيها كثير ممن كتب عن هذا المصطلح من ذلك (دبليو بودج) [٢]. وحسب ما توصلت إليه دراسة الباحث في الفصل الأول من

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد: مرجع سبق ذكره، ص١.

(٢) E. A. Wallies. Boudge. (١٨٨٧□١٩٣٤) Egyptian Sudan. Its History and =

رسالة الدكتوراة المشار إليها [١]. فالسودان يعني البلاد التي يقطنها السود عموماً في أفريقيا والواقعة جنوب الصحراء الكبرى. والذي يعنينا في هذه الدراسة السودان الحالي (سودان وادي النيل).

٢- مصطلح أثيوبيا:

أن هذا المصطلح من خلال كتابات المؤرخين والكتاب اليونانيين والرومان يعني المساحات الشاسعة الممتدة من جنوب مصر من أفريقيا تقريباً إلى آسيا وهي المنطقة التي تسكنها العناصر من ذوي البشرة المحترقة [٢] أو السوداء أو الزيتونية اللون، ولعل هذا ما يعنيه اللفظ الإغريقي Aethiops ويتكون من مقطعين Theism بمعنى محترق OPS بمعنى وجه.

ومن هؤلاء الكتاب هوميروس الشاعر وهيرودوت المؤرخ اليوناني وديودور واسترابو من مؤرخي الرومان أوائل ظهور المسيحية. ولقد قسم هؤلاء المؤرخون سكان تلك المنطقة تقسيماً عرقياً إلى مجموعتين كبيرتين هما: الأثيوبيون الشرقيون وموطنهم بلاد العرب وسوريا وما بين النهرين ثم امتداد هذا الصقع شرقاً حتى الهند، والأثيوبيون الغربيون ويقطنون البلاد الواقعة غربي البحر الأحمر وتضم

=

Monument ٢ Vole Boston Public Library. New York ١٩٧٦. p٣□٤.

(١) سيد أحمد العقيد: العلاقات السودانية، الفصل الأول.

(٢) ابراهيم علي طرخان: الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى، السودان، الخرطوم، جامعة القاهرة، فرع الخرطوم، ١٩٥٧م، ص٣.

مصر والسودان [١].

ونلاحظ أن هذا التعريف يشير إلى رباط قوي بين ساحلي البحر الأحمر الشرقي والغربي عرقياً. حيث من المعروف جغرافياً أن الأخدود الأفريقي العظيم هو الذي فصل بين الجانبين، وعندما أعيد ترجمة الإنجيل من الإغريقية إلى الأثيوبية المعروفة باسم الجعز أطلق المترجمون كلمة أثيوبيا وعنوا بها الحبشة [٢].

٣- كوش:

هذا المصطلح قد أطلقه قدماء المصريين على حدود مصر الجنوبية وهي تعني ما نسميه ببلاد النوبة وقد ذكرها العبرانيون كما ورد في التوراة في سفر التكوين (١٠): (وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان وبنو كوش سبأ وحويلة وسبتة ورعمة وسبتكا وبنو رعمة شبا وددان، وكوش ولد نمرود الذي ابتدأ يكون جباراً في الأرض) "الكتاب المقدس" سفر التكوين (١٠) الآيات ٦، ٧، ٨ (والكوشيون من العناصر التي استوطنت الحبشة وهم يتكلمون لغات خاصة غير سامية يطلق عليها الباحثون "اللغات الكوشية" وهم أحد العناصر الثلاثة الرئيسية التي تتألف من الشعوب الحبشية وقد يطلق عليها القبائل الحامية نسبة إلى حام جدهم الأكبر، كما يطلق عليها

(١) المرجع السابق ص٤.

(٢) إبراهيم علي طرخان: مرجع سبق ذكره، ص٥.

أيضاً القبائل النوبية[(١)]وأثيوبيا تعني كوش، والكوشيون قد أصبحوا سادة على أغلب بلاد شمال شرق أفريقيا ما عدا مصر [(٢)].

٤ – الحبشة:

الأحباش تعني الأخلاط، أما كلمة الحبشة ومنها الأحباش وهما اللفظان اللذان في اللغة الإنجليزية (Abyssinia – Abyssinians) يرجع هذا المصطلح في أصله إلى قبيلة عربية هي (حبشت) السامية التي عبرت البحر الأحمر مهاجرة من جنوب الجزيرة العربية واستقرت في الساحل الشرقي لأفريقيا. ويرجح أن هذه القبيلة قد جاءت إلى هذه المنطقة في الفترة الواقعة بين القرن العاشر والسابع قبل الميلاد. وقد سادت لموقعها الحضاري ودورها الريادي وصبغت البلاد بصبغتها الثقافية، وما أن أطل القرن الرابع قبل الميلادي حتى غلب اسم هذه القبيلة على المنطقة بأسرها وأضحت كلمة الحبشة ترادف كلمة أثيوبيا. بمعنى آخر فإن مصطلح الحبشة وأثيوبيا كانت تاريخياً وجغرافياً ومضموناً تشمل ما هو معروف الآن حالياً باسم السودان والحبشة وإريتريا والصومال، وكانت حدود هذه المنطقة دوماً عرضة للتغيير [(٣)].

(١) عبد المجيد عابدين: بين الحبشة والعرب، لبنان، بيروت، دار الفكر العربي، د. ت، ص٨.

(٢) إبراهيم علي طرخان: مصدر سبق ذكره، ص٥.

(٣) المرجع السابق، ص٥- ٧.

بهذا نكون قد فرغنا من تحرير المصطلحات وأزلنا اللبس وأدركنا التداخل بين هذه المصطلحات الأربعة وأنها ذات دلالة تتشابه لفظاً ومعنىً ومكاناً إذ أنها كلها تدل على المنطقة الواقعة جنوب أسوان بامتداد هلامي إلى أعماق أفريقيا جنوباً وشرقها على وجه الخصوص، وأنها تنطلق على المنطقة الواقعة جنوب مصر وأن سكانها هم ذوو البشرة المحترقة أو الزيتونية وأنها مجاورة لجزيرة العرب يفصل بينها وبين جزيرة العرب البحر الأحمر.

والذي يعنينا بيانه من كل ما تقدم أن الحبشة المقصودة في العصور الجاهلية والإسلامية الأولى والوسيطة تشمل السودان الحالي وأحياناً يطلق مصطلح الحبشة، ويرجح أنه يعني سودان وادي النيل الحالي وأن التداخل الاصطلاحي بين مفهوم أثيوبيا والسودان والحبشة وكوش على حسب ما سبق إيراده في تقدير الباحث يؤكد على صحة هذه الفرضية التي أوردنا جزئاً منها في بحث الدكتوراة في الفصل الأول، والتي ظل بروفيسور عبد الله الطيب رحمه الله يؤكد عليها في أبحاثه ودراسته بأن الهجرتين الأولى والثانية كانت إلى بلاد علوة والسودان وأن السودان الحالي كان أقرب نقطة إلى مكة [(١)] لاسيما إذا علمنا أن الآثار قد أشارت إلى وجود مقابر إسلامية على الطراز الإسلامي بالقرب من سواكن ويرجح أن بعضاً منها يرجع إلى عهد الصحابة. ومما يمكن قوله أن المسافة ما بين نهر عطبرة وسواكن

(١) جولييت عدلي غابيوس: علاقات دولة الفونج ببلاد العرب، السودان، أم درمان، جامعة الزعيم الأزهري، كبية التربية، سنة ٢٠٠٤م، رسالة دكتوراة (غير منشورة)، ص٢.

ليست بالكبيرة أو الشاسعة ومصطلح النيل والنهر مترادفان معنى ولغة في القديم لاسيما وقد ورد ذكر النيل في حديث الهجرة [(١)] ومنطقة البجراوية أقرب إلى سواكن من غيرها.

ولا يخفى أنه توجد على الساحل السوداني عدة نقاط ارتكاز وهي بمثابة موانئ هي الأقرب لمكة وسواكن إحداها ومنها كانت تسير القوافل إلى الداخل، وكان أقرب منفذ لمكة هو ميناء الشعيبة الذي يقع على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر وعلى الجانب الغربي يقابل شمال عيذاب[(٢)] التي تقع شمال بور تسودان ميناء السودان الحالي. والتي تقع على الجانب الغربي للبحر الأحمر على الساحل السوداني.

ولا يخفى أن عيذاب ظلت لقرون عديدة منفذاً ومعبراً للحجاج القادمين من جهة الغرب لا من السودان فحسب بل ظلت من أحفل مراسي الدنيا بسبب مراكب الهند واليمن والصين التي تحط فيها رحالها وتقلع عنها زائداً مراكب الحجاج التي تحمل الآلاف من الحجاج وتستقبل مثلهم سنوياً، وكانت بها مرافق (فنادق) ولأهلها

(١) بدوي الطاهر بدوي: المكونات الحضارية لمدينة سواكن، السودان، أم درمان، جامعة أم درمان الإسلامية، معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي، سنة٢٠٠٤م، رسالة دكتوراة (غير منشورة) ص٩٧. انظر: سيد أحمد العقيد: العلاقات: مصدر سبق ذكره، ص٧٨.

(٢) بليدة : تقع على ضفة بحر القلزم (البحر الأحمر) وكانت من أشهر الموانئ العالمية في العصور الإسلامية المختلفة، إذ كانت تأتيها السفن من اليمن والحبشة والهند. وكانت طريق ومنفذ الحج المصري والمغربي يأتي إليها الركاب عن طريق قبرص، وكانت ذا شأن عظيم بالنسبة للحجاج إذ يبدأ منها طريق القوافل إلى أسوان وقوص. انظر: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: الخطط، ج١، ص٢٠٢- ٢٠٣.

أيضاً أكراء الجلاب[1] وما من أهلها أحد من ذوي اليسار إلا وله الجلبة والجلبتان، وهي تعود عليهم برزق واسع، ولهم دور للإيجاز تخص الأهلين الذين امتلكوا بعيذاب الديار والرباع والجلاب، وفي بحر عيذاب مغاص اللؤلؤ ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنية، والمغاص منها قريب القعر ليس ببعيد [2]. الأمر الذي له دلالته الاقتصادية والاجتماعية وأثره البالغ في وجدان الأمة السودانية.

علماً بأن الحجاج في الزمن السابق لم يكن أمرهم يقتصر على العبور وإنما يتعداه إلى الإقامة والمصاهرة ودعوة الخيرين من أهل مكة وعلمائها لزيارة السودان والإقامة فيه. الأمر الذي ترك أثراً في التكوين العرقي والثقافي والفكري والاجتماعي والسلوكي والروحي للأمة.

وبالتالي يمكن أن نقول أن مينائي الشعبية وعيذاب شكلتا مورداً بشرياً غادياً وقدراً اقتصاديا ومستوى ثقافيا ، وكانت هذه الموانئ بوابة لا غنى عنها لمكة والمدينة ومنفذا سودانياً لا غنى عنه . هذا بالإضافة إلى ميناء سواكن وباضع وكلها موانئ سوادنية .

---

(١) الجلاب: قطع ضمت إلى بعضها البعض الآخر، لا يستعمل فيها مسمار البتة وهي مخيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه (يدوسونه) إلى أن يتخيط ويفتلون منه أمراساً (سيوراً) يخيطون بها المراكب ويخللونها بدرس (شيء كالليف) من عيدان النخل يسقونها بالسمن أو دهن الخروع أو دهن القرش (وهي أشبه ما تكون عندنا الآن وتسمى بالسنبوك)، انظر: المصدر التالي: رحلة ابن جبير، ص٤١.

(٢) أبو الحسين محمد بن جبير الكناني الشاطبي: (٥٣٩- ٦١٤هـ) – (١١٤٤- ١٢١٧م): رجلة ابن جبير: لبنان، بيروت، د.ت، ص٣٩- ٤١.

العلاقات السوادنية العربية قبل الإسلام :

مما لا شك فيه أن السودان الحالي قد ارتبط بشعوب شبه الجزيرة العربية منذ أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد . وفي حوالي القرن الأول قبل الميلاد وصلت مجموعات من القبائل العربية بهدف التجارة على السواحل البحر الأحمر ووسط السودان الحالي . (١)

ولقد ظلت العلاقات ما بين العرب والسودان وادي النيل (السودان الحالية) قبل ظهور الإسلام قوية . فالبحر الأحمر على سواحله الغربية يقع السودان بمفهومه الواسع الذي يعني كل المنطقة جنوب مصر والصحراء الكبرى أو الخاص الذي يعني سودان وادي النيل الحالي والذي على سواحله الشرقية تقع جزيرة العرب ، ومكة هي قلب الجزيرة العربية ، ولم يشكل البحر الأحمر في كل العصور التاريخية حاجزاً أو عاتقاً طبيعياً يحول دون التواصل الثقافي والعرقي، إذ لا يزيد أتساع هذا البحر على المائة والعشرون ميلاً عند شرقي السودان ويضيق عند باب المندب بحيث لا يزيد عرضه عن عشرة أميال، وإن عبوره في كل جزء من أجزائه كان ولا زال وسيظل مسيوراً (٢). مع تقدم العلم واختراعات عابرات أسرع في مجال البحرية .

---

(١) مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة / مصر/ القاهرة/ دار الاتحاد العربي سنة ١٩٦٠م ص ١٠٨ .

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام / لبنان / بيروت / دار الكتاب العربي / ط ١٩٦٩م ص ١٣ .

ولا أدل على هذا القول أو أقوى برهاناً بأن ميناء محمد قول [١] التي تقع على بعد (٩٥) ميلاً شمال بور تسودان على ساحل البحر الأحمر يمكنك سماع طلقات المدافع التي تطلق في جدة وأنت مقيم فيها . [٢]

التكوين السكاني :

السودان الحالي منذ القدم كان قبلة للكثير من موجات الهجرة السكانية واسقرارها وأنصارها ، بل لهجرة الكثير من الشعوب التي هاجرت إليه من عرب الحجاز واليمن وسكان آسيا ومن الأمم المجاورة كالحبشة ومصر وبربر بلاد المغرب ، واختلطت هذه الشعوب بنسب متفاوتة بأهل البلاد الأصلين كماً ونوعاً .

وإن كنا نلاحظ أن شمال السودان شرقاً وغرباً وشمالاً ووسطاً يغلب عليه الدم العربي والسحنة العربية والخلق العربي ، لا بل واللسان العربي والثقافة العربية والدين الإسلامي والعنصر السوداني هو مزيج تتفاوت نسبته بين (العرب والحاميين والنوبة والبجة والبشاريين) والزنوج النيليين (الشلك والدينكا) ومن أشباه الزنوج والفور والفونج ومن الآريين (الأتراك) .

(١) محمد قول : هو تاجر من الأرتيقة كان متزوجا بأحدى بنات الأمارار . أنتقل إلى هذه المنطقة وفتح حانوتاً فسميت الميناء باسمه مع أن اسمها الأصلي بابديت (باعيذاب) وهو ميناء عيذاب المذكور في رحلات العرب .

(٢) محمد صالح ضرار : تاريخ سواكن والبحر الأحمر / السودان / الخرطوم / الدار السودانية ١٩٨١م ص ١٩٤ .

ويعتقد أن البجة سكان شرق السودان الحالي والفونج مؤسسو سلطنة الفونج في جنوب النيل الأزرق حاميون ولكن الأرجح لدى الباحث أنهم من جزيرة العرب تصاهروا مع العناصر الزنجية. ومما لا شك فيه أن الهجرات العربية بالسودان قديمة . بيد أنها قد تضاعفت في عهد الرومان والبطالسة إلى كل من السودان الحالي ومصر لا سيما التجار منهم . وأن منطقة سواكن وسنار هما الأقرب إلى الحبشة موقعاً ومن ثم إلى اليمن . ومن المؤكد أن اليمن كان يخضع سياسياً للحبشة . وإن الهجرات العربية قد جاءت إلى السودان الحالي عن طريق الحبشة بذات القدر الذي جاءت به عن الطرق الأخرى شرقاً أو غرباً أو شمالاً .

ومن المعروف وحسب ما سبق وان قدمنا أن مكة كانت من أقرب النقاط إلى السودان الحالي وكانت تشكل مركزاً قدسيا وتجارياً هاما . إذ لم تنعم استقرار زراعي وإنما كان يعتمد أهلها على التجارة ، وقد أشار القرآن إلى الجزء الأول المتمثل في عدم وجود استقرار زراعي على لسان إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ [١]. وقد أشار إلى الجزء الثاني التعلق باعتماد أهلها على التجارة سورة قريش السورة [٢].

(١) سورة إبراهيم الآية (٣٧) .

(٢) السورة رقم (١٠٦) .

ولقد قوي اتصال السودان بمكة منذ القرن الثامن الميلادي حيث اتصل العرب عن طريق البحر الأحمر ومصر ومكة ، إذ جار العرب إلى السودان تجاراً من مصر بلاد السودان حاجين أو مقيمين (١) ذلك لأن عيذاب كانت الميناء الآمن لقدوم وإياب الحجاج من الشمال الأفريقي ومن غرب أفريقيا .

ولعل من الدوافع قدوم العرب قبل الإسلام وبعده من مكة ومنطقة الحجاز على وجه العموم اشتهار منطقة البجو وشرق السودان بمعادن الذهب والزمرد ، واستقرار بعض القبائل العربية من عرب جهينة وربيعة في البلاد البجة وفتح الطريق بين مصر والحجاز عن طريق ميناء عيذاب السوداني والحج في العصور الإسلامية (٢).

العلاقات المكية السودانية قبل الإسلام :

ويبدو أن الوجود النوبي بمكة أو المكي بالسودان لم يكن طارئاً بعد الإسلام لأنه من المعلوم أن جدة العرب نوبية وهي (هاجر) وأن السودانيين هم أخوال العرب . لأن لفظة (كعبة) و (بكة) تتكونان من مقطعين نوبيين ف (كا) في اللغة النوبة تعني : بيت و(با) تعني : حوض ماء . وإذا أضفت المقطع الأول إلى الثاني صار (باكا) وهو ذات المصطلح القرآني(٣) وإذا عكست الإضافة فإنها تصير (كابا)

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : مصدر سبق ذكره ص ٢٠- ٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤ .

(٣) سورة آل عمران (أم أول بيت وضع للناس للذي ببكة) وهى لفظة لا تعرفها العرب في لغتها فهي لفظة نوبية دخيلة على اللسان العربي .

وهـي كعبـة مـع قلـب الألـف عينـاً فقلبهـا العـرب مـن الألـف إلى العـين . ثـم مـسألـة أخـرى وهـي لفظـة (زمـزم) وهـي نوبيـة قحـة لأن (زمـزم) لفظـة نوبيـة قالتهـا (هـاجر) حـين تـدفق المـاء وهـي تعـني : اهـدأ وهـذا في مجملـه يشير إلى ما نطقت به هاجر وهو لسان نوبي فصيح .

وبالتـالي فـإن الأنفـة ونكـران هـذه العلاقـة هـو أمـر طـارئ نـاتج عـن جهـل بحقـائق التـاريخ كمـا أكـد علـى ذلـك ابـن العربـي في كتابـه أحكـام القـرآن عنـد تفـسير قولـه تعـالى : ﴿ والله أعلـم بإيمـانكم بعـضكم مـن بعـض ﴾ . سـورة النـساء الآيـة (٢٥) حيـث قـال في معـرض تفسير هذه الآية .

المسألة الحادية عشرة . قولـه تعـالى ﴿ بعـضكم مـن بعـض ﴾ قيـل معنـاه بنـو آدم وقيـل معنـاه أنـتم المؤمنـون أخـوة ، وفي هـذا دليـل علـى التـسوية بـين الحـر والعبـد في الـشرف ، ورد علـى العـرب الـتي كانـت تـسمى ولـد الأمـة هجينـا تعـييراً لـه بنقـصان مرتبـة أمـة ، وهـذا أمـر أدخلتـه اليمنيـة علـى المـضربة مـن حيـث لم تـشعر بجهـل العـرب وغفلتهـا ، فـإن إسماعيـل ابـن أمـة فلـو كانـت العـرب علـى بـصيرة مـا قبلـت هـذا التعـبير وإليهـا يرجـع [١]. كمـا أن بـلال بـن ربـاح المـؤذن أمـه نوبيـة مـن دنقـلا مـن شمـال الـسودان وتـسمى حمامـة [٢] وبالتـالي فهـو سـوداني موجـود بمكـة

(١) أبي بكر محمد بن عبد المعروف بابن العربي (٤٦٨- ٥٤٣هـ) : أحكام القرآن تحقيق علي محمد البجاوي / لبنان / بيروت/ دار الجيل ١٩٨٨م . ج١ . ص ٣٩٦ .

(٢) أحمد بن حجر العسقلاني (٧٧٣- ٨٥٣هـ) : فتح الباري شرح صحيح البخاري / تحقيق وتصحيح =

قبل الإسلام وأيمن بن عبيد وأمة أم أيمن موليا النبي صلى الله عليه وسلم اللذان ورثهما عن أبيه كانا سودانيين ورباح نوبي وهو قتيل العرنيين ومدعم أهداه للرسول صلى الله عليه وسلم رفاعة بن زيد أحد بني الضبيب وردت قصته [(١)] وكركره وهو نوبي أيضاً أهداه للرسول صلى الله عليه وسلم هوذه بن علي الحنفي صاحب اليمامة [(٢)].

إن هذا الوجود الثاني الكثيف بمكة ومنطقة الحجاز عموماً يؤكد على أن العلاقات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين بلاد العرب (مكة على وجه الخصوص) والسودان بحدوده الحالية قبيل ظهور الإسلام كانت قوية فلم يشكل البحر الأحمر حاجزا .

وكانت لمكة صلات تجارية قوية وواسعة مع الساحل الغربي للبحر الأحمر حيث تذكر المصادر أن الحبشة كانت متجراً لقريش يجدون فيه الرزق والأمن . ولكننا نؤكد بأن المقصود هو السودان الحالي الذي كان يمثل الجزء الأكبر من هذا الساحل الغربي للبحر الأحمر والأقرب لمكة من غيره ، وبالتالي يمكن القول بأن السودان الحالي هو المقصود بهذه الإشارات والذي كان يمثل متجراً فعلياً

=

عبد الله بن باز / السعودية / الرياض / طبعة رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء / د.ت/ الجزء السابع ص ٩٩.

(١) في البخاري ج ٧/ ٥٧٣ وفي صحيح مسلم كتاب الإيمان .

(٢) شمس الدين أبي عبد الله محمد بن بكر الزرعي الدمشقي : زاد المعاد في هدى خير العباد / تحقيق وشرح وتعليق الأخوين شعيب وعبد القادر الأرناؤوط/ لبنان / بيروت / مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ط (١٤٢١- ٢٠٠٠م) ج١ ص ٨٢، ١١١ .

لقريش يجدون فيه الرزق والأمن على حسب ما أوردت المصادر التاريخية الإسلامية ، لأن كلمة حبشي كانت تعني السودان كما هو الحال بالنسبة لبلال الحبشي وهو من شمال السودان الحالي لا من جنوبه الذي هو أقرب إلى الحبشة الحالية . ويكون من باب لى عنق الحقيقة إن فهم الباحث الأمر بخلاف ذلك . وقد قصد ساحل البحر الأحمر كبار تجار مكة قبل الإسلام لشراء ما يحتاجون من سلع تجارية متوفرة في المنطقة من عبيد وريش نعام وجلود وأغنام وذهب وغيرها من السلع ليبيعوها في أسواق الشام ومصر ، وكذلك كان هذا الساحل يمثل لهم مركزاً تجارياً يبيعون فيه ما قدموا به من الشام.

وكان اتصال تجار مكة بالسودان عن طريق ميناء الشعيبة معلوماً وقد جاء في حديث بناء الكعبة عن وهب بن منبه أن سفينة حجتها الريح (أي دفعتها) إلى الشعيبة[1]وهي مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز وكان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة . ومن الناحية النظرية شتان ما بين الحبشة بمفهومها الضيق الآن وبين ميناء الشعيبة التي هي أقرب ما تكون إلى عيذاب منها مصوع . وهذا إذا أخذنا في الاعتبار أن البحر الأحمر ليس شأنه شأن النيل بتياره الجارف .

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ- ٩٢٣م) : تاريخ الأمم والملوك لبنان/ بيروت/ د.ن/ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م / ج٢ ص ١٨ .

وبالتالي يكون المقصود بالسفن الحبشية الواردة في هذه العبارة سفن سودانية للتجاوز المجود في الاستخدام لمصطلح حبشة عند الأقدمين .

العلاقات المكية السودانية بعد الإسلام :

يشير الطبري إلى مرسى الشعيبة عند حديثه عن هجرة المسلمين إلى الحبشة [(١)] (السودان الحالي) في تقدير الباحث بقوله : (الذين هاجروا الهجرة الأولى متسللين سراً وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة حتى انتهوا إلى الشعيبة ووفق ساعة جاءوا بسفينتين للتجار حملوهم إلى أرض الحبشة . [(٢)]

تأتي أهمية هذه الإشارة الواردة في الطبري من حيث تأكيدها على معرفة سكان مكة لميناء الشعيبة وارتيادهم له ، وليست الهجرة الأولى هي أول محاولة ولا آخرها وإنما يدل ذلك على أن السودان وهذا الجانب الغربي منه المقابل لميناء الشعيبة كان معروفاً ومطروقاً من قبل مكة مما يدل على متانة التواصل، هذا إذا أضفنا إليه الوجود النوبي الكثيف بمكة الذي يؤكد على أن شرق السودان وشماله كان على صلة وثيقة بمكة وكانت مكة على صلة به وذلك قبل الإسلام وبعده .

---

(١) المرجع السابق : عبد الله الطيب .

(٢) عبد الرحمن حسب الله : العلاقات بين العرب وشرق السودان منذ ظهور الإسلام وحتى ظهور الونج / مصر/ القاهرة/ جامعة القاهرة / كلية الآداب/ قسم التاريخ / رسالة دكتوارة ١٩٧٩م (غير منشور). ص ٥- ٦ .

ولا أدل على ذلك من أن هجرة المسلمين الأوائل كما ذكر الطبري في ذات العبارة كانت على سفن حبشية والتي يرجع أنها سودانية ولعل عبارته تلك تؤيد ما ذهبنا إليه من أن الهجرة إلى الحبشة كانت تعني الهجرة إلى السودان وأن هؤلاء الصحابة وفدوا إلى السودان حسب ما سبق إيراده [١].

إن تواجد سفن حبشية أو قل سودانية معها سكان مكة تدل على أن السودان كان مرتاداً من قبل سكانها ، وأن سكان السودان كانوا يشكلون وجوداً معتبراً بمكة قبل الإسلام ، وكما يؤكد على ذلك أحد الباحثين [٢] بقوله : (إذ لا يعقل أن يهاجر المسلمين الأوائل إلى بلد لا يعرفونه وهذه المعرفة اكتسبوها من سفرهم إلى هذه البلاد فإن الساحل الغربي للبحر الأحمر لم يكن غريباً على المسلمين [٣].

الروابط السياسية عند ظهور الإسلام :

مما لا شك فيه أن هناك علاقات وروابط سياسية ظلت قائمة بين المسلمين الأوائل والسودان ، ولقد طور المسلمون هذه العلاقات وابقوا عليها ولدى ظهور الإسلام كان شرق السودان وجزء من شماله خاضعاً لملك أكسوم منذ عهد الملك عيزانا الذي حكم في الفترة

(١) عبد الله الطيب: محاضرة الأسبوع / السودان / أمد رمان / الإذاعة السودانية / الجمعة ١٩٩٠/٨/١٩م الساعة العاشرة صباحا .

(٢) د. عبد الرحمن حسب الله في أطروحته التي سبقت الإشارة إليها .

(٣) المصدر السابق . ص ٥ - ٦ .

الواقعة بين (٣٢٥ – ٣٧٠م) وقد غزا هذه المناطق قبل ظهور الإسلام [(١)] . ويوجد لعيزانا ذكر فيه الألقاب التي يحملها وهي : (ملك أكسوم ، حمير ، البجة ، كاسو ، وملك الملوك) [(٢)] .

ولقد ظلت هذه السيطرة قائمة حتى مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم واشتداد الأذى والبلاء عليه وعلى أصحابه ، فاقترح عليهم الخروج إلى الحبشة أي (السودان الحالي) في تقدير الباحث بقوله : (لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه) [(٣)] .

وقال ابن القيم الجوزية لما كثر المسلمون وخاف منهم الكفار اشتد أذاهم له صلى الله عليه وسلم وفتنتهم إياهم فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة إلى الحبشة فهاجر من المسلمين اثنا عشر رجلاً وأربع نسوة منهم عثمان بن عفان (تاجر قديم) وهو أول من خرج ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقاموا في الحبشة في أحس جوار فبلغهم أن قريشا أسلمت وكان هذا الخبر كذباً (إشاعة قرشية) فرجعوا إلى مكة فلما بلغهم أن الأمر أشد مما كان منهم من رجع (قبل دخول مكة) ودخل منهم جماعة فلقوا من

---

(١) Budge : E. A. A. History Of The Ethiopia, Nubia, Abyssinia, England, Cambridge ١٩٥٥. vol, I, pp. ٢٤٢ – ٢٠/s .

(٢) Arkel, A . J . A . History Of The Sudan . England , London , ١٩٦١.P. ١٧٢ .

(٣) جمال الدين أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميدي المعافري (ت ٢١٣هـ) : السيرة النبوية / مصر / القاهرة / دار المنار ١٩٩٣م ج ا ص ٩٥ .

قريش أذى شديداً .

وكان ممن دخل مكة عبد الله بن مسعود ثم أذن لهم في الهجرة ثانياً إلى الحبشة ، فهاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان فيهم عمار بن ياسر فإنه يشك فيه ومن النساء ثمان عشرة امرأة، فأقاموا على أحسن حال فبلغ ذلك قريشا فأرسلوا عمراً بن العاص وعبد الله بن ربيعة وكانا رجلين جلدين في جماعة ليكيدوهم عند النجاشي[1]وحملا معهما هدايا لرجالات البلاط الحبشي والنجاشي بغية التأثير على اتخاذ القرار إزاء هؤلاء المهاجرين . وكان غاية هذا العمل إحباط محاولة المسلمين في إيجاد متنفس أو ملجأ يمكن أن يشكل خطراً على الوجود المكي في هذه البلاد وعلاقتها التجارية بها وعلى موقف مكة نفسها ، بيد أن النجاشي قد رفض عروض القرشيين ورد حججهم واقتنع بما برهن به المسلمون على صحة دعواهم والذين مثلهم في هذا المدافعة الخطيرة والمصيرية جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى عليه وسلم وقال النجاشي مخاطباً الرسولين : (لا أسلمهم إليكم أبداً)[2] . وهناك احتمال أقرب إلى القبول في تقدير الباحث يرجع إن الهجرتين كانتا إلى السودان ، وهو أن المسلمين الأوائل لربما قد هاجروا إلى منطقة كانت تقوم فيها مملكة تقع بالقرب من شندي الحالية التي هي أقرب الاحتمالات لأنها

(١) شمس الدين أبي عبد الله بن أبي بكر الزرعي الدمشقي / مصدر سبق ذكرة ج ا ص ٥٩ . أنظر ابن هشام : مصدر سبق ذكره ج ا ص ٣٥٦- ٣٥٧ .

(٢) المصدر السابق .

قد قامت فيها ممالك قديمة . هذا بالإضافة إلى أن الطريق التجاري بين هذه المنطقة والبحر الأحمر كان معروفاً منذ القدم ، وقد شكلت منطقة شندي قديماً نقطة تجارية هامة ربطت بين هذه البلاد وما وراءها من بلاد السودان وموانئ البحر الأحمر مثل عيذاب وسواكن وباضع ، ومن ثم موانئ الحجاز مثل الشعيبة . أما منطقة سواكن فقد شكلت معبراً هي الأخرى بالرغم من عدم وجود ممالك بها لأن سكانها من البجة الذين شكلوا وسيطاً تجارياً جيداً ومناطق الدواخل السودانية . ولعل ذلك يفسر وجود مقابر للمسلمين بها بين أبناء العمومة أو الخؤولة أثناء الذهاب أو الإياب أو أثناء الإقامة بعد انتهاء التجارة .

من خلال هذه القصة نستخلص عدة نتائج :

أولاً : أن الهجرة الأولى كان من ضمن أعضائها شخصان غاية في الأهمية من الناحية السياسية والاقتصادية أولهما : عثمان بن عفان الذي كان تاجراً ومن أغنياء مكة ومن البطون ذات القدر في مكة . إضافة إلى أنه كان صهراً للرسول صاحب الدعوة . وثانيهما : بنت صاحب الدعوة نفسه وبين أعز زوجاته لديه والتي كانت من أعلى البطون في مكة .

ثانياً : إن خروج هاتين في هذه الهجرة مما يدل على أن السودان كان بلدا معروفاً وبقدر واسع لدى الرسول صلى الله عليه وسلم ولدى عثمان بن عفان ، وان لا لكان خروج عثمان وبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الهجرة يعد مخاطرة وحماقة . والمصطفى صلى الله

عليه وسلم حاشاه أن يكون كذلك .

ثالثاً : إن قول الرسول صلى الله عليه وسلم (إن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق) يدل على معرفة دقيقة وصلة وثيقة بهذا البلد وأن هذه المعلومة في حد ذاتها لتؤكد على مدى التواصل والترابط الحادث بين السودان ومكة قبل الإسلام .

رابعاً : أن نقا الأخبار بين مكة والسودان ما كان ليأخذ وقتاً مما يعني أن هناك رحلات منتظمة بين مكة والسودان وأن لا فكيف بلغت تلك الإشاعة التي أطلقها أهل مكة المهاجرين لو لم يكن الخط مفتوحاً بين البلدين . ولو لم تكن المسافة قريبة كما هو الحال بين السودان ومكة وميناؤهما عيذاب والشعيبة .

خامساً : يبدو أن هناك لغة تخاطب سائدة بين الطرفين لأن الوارد أن جعفر قد تلى سورة مريم من غير مترجم ، حيث لم تشر المصادر إلى ذلك بأي عبارة . ويقال أن النجاشي قال مخاطباً المسلمين : (اذهبوا أنتم سيوم بأرض) والسيوم تعني الآمنون [(١)] .

إن عبارة (اذهبوا أنتم سيوم بأرض) تؤكد على أن لغة حبشية مطمعة بلغة عربية أو العكس كانت تعني أن هناك تفاهماً لغوياً مما يعني وجود أثر عربي واضح وأن أهل مكة ما كانوا يجهلون لغة الحبشة والعكس قد يكون صحيحاً ، وهذا في حد ذاته أمر له

---

(١) عبد الرحمن حسب الله : مصدر سبق ذكره . ص ٩ .

دلالتـه التاريخيـة إذ يؤكـد علـى عمـق الـروابط بـين (مكـة والـسودان) ، لـذا لم يحـتج النجاشـي لمترجـم حيـث لم تـذكر المـصادر شـيئاً عـن ذلـك. ولا يخفـي أن القـرآن قـد تـضمن ألفاظـاً ومـصطلحات نوبيـة سـودانية علـى سـبيل المثـال لا الحـصر كلفظـة (ألـيم) (وحـصب) (وأواه) (والجبـت) (وأوبـي) (والطـاغوت) (والجـودي) الـتي تعـني النوبيـة الـسهل مـن الأرض ...الخ. ممـا ذكـره الـسيوطي في كتابـه (الإتقـان) ، الأمـر لـه دلالتـه العميقة في مجال العلاقة بين مكة ومجتمعها وبين السودان [1].

سادسـا : إن هـذه الهجـرة لم تكـن الوحيـدة وإنمـا كـان لهـا أكـبر الأثـر في علاقـة المـسلمين فيمـا بعـد بهـذه المنـاطق حيـث أشـار الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم في أكثـر مـن حـديث بقولـه : (اتركـوا الحبـشة مـا تركـوكم) وإن كـان في أكثرهـا مقـال [2]. إلا أنهـا تـدل على أن أثرها ظل فاعلاً وإيجابياً .

سـابعاً : إن هـذا الوفـد مـن المهـاجرين كانـت فيـه ابنـة سـيد مـن سـادات قـريش وهـي ابنـة أبـي سـفيان ، فـو لم يكـن الـسودان آمنـا مـا كـان الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم ليخـاطر بخلاصـة أتباعـه وأقـربهم إليه نسباً وصهراً .

---

(١) جلال الدين عبد الرجمن بن أبي بكر المشهور بأبي الفضل / الإتقان في علوم القرآن / لبنان / بيروت / مكتبة دار الهلال / د ت / الجزء الأول ١٣٨- ١٣٩ .

(٢) مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري (٥٤٤- ٦٠٦هـ) : جامع الأصول في أحاديث الرسول / تحقيق وتخريج وتعليق عبد القادر وشعيب الأرناؤوط / سوريا/ دمشق/ مكتبة الحلواني ودار البيان ١٩٧٢م ج ٩ . ص(٢٣٣ ، ٣٠٣) . الأحاديث رقم (٦٨١١ ، ٦٩١٢) .

ثامناً : إن الفترة التي قضاها المهاجرون المكيون بالسودان ليست بالقصيرة حيث قضوا فيه أربعة عشر عاماً أثروا وتأثروا فيها بخلال وقيم وأعراف المجتمع المقيمين فيه وهو أمر مشاهد بالتجربة ، ولعل من الآثار التي حملوها حين رجعوا أن جعفر بن أبي طالب حين رجوعه كان يحجل [(١)] حول النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما هذا ؟ قال : (شيء رأيت الحبشة يصنعونه بملوكهم) [(٢)].

ولقد كان هذا النوع من الرقص والألعاب التي تتميز بها قبائل البجة بشرق السودان وأيضا اللعب بالحراب والقتال بها من أبرز خصائص البجة إلى اليوم دون منازع في المنطقة .

تاسعاً : إن وجوداً سودانياً ملحوظاً في المدينتين المقدستين مكة والمدينة مما لا تخطئة العين ، ولقد كان السودانيون الموجودون بمكة من أوائل من استجاب لهذه الدعوة يمثل هذا النوع بلال وأم أيمن وهو أرقام صعبة في المعادلة الإسلامية الأولى ، وهو أشخاص لهم

---

(١) الحجل هو الرقص على رجل واحدة وهو أشبه ما نسميه في السودان (العرضة) وهي عادة سودانية خالصة منتشرة في كثير من أقاليم السودان وأن كان أهل الشرق هم بها أشهر . وهي لا تزال من المظاهر المعروفة لدى سكان شرق السودان . ومما يتميزون به من العروض الفنية دون غيرهم من أحباش اليوم .

(٢) عبد الرحمن حسب الله . مصدر سبق ذكره (نقلا عن ابن الجوزي) ص ١٠ . أنظر أحمد الحنفي : الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان / مصر/ القاهرة/ بولاق /١٣٢١هـ- ١٩٢٠م ص ٥٤ .

أوزانهم ومكانتهم المقدرة لدى الرسول وصحابته يومئذ ، ويدل على هذه الكثافة أن الرسول صلى اللّه عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة قد سبقه إليها السودانيون الذين شكلوا ظاهرة لفت الأنظار بعوضهم المتميزة ، فقد أورد أبو داود في كتاب الأدب باب النهي عن الغناء بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال : (لما قدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المدينة لعبت الحبشة لقدومه فرحاً بذلك لعبوا بحرابهم) [(١)].

وكانوا في كل مناسبة لهم عروض متميزة حتى داخل المسجد النبوي بعد الهجرة بفترة طويلة كما ورد في حديث عائشة الذي أخرجه البخاري ومسلم والنسائي بأكثر من رواية [(٢)] .

عاشراً : يبدو الأثر المتبادل بين أهل مكة والسودانيين واضحاً في خلق الكرم الذي اشتهر به البجة في شرق السودان وفي دار فور وفي أجزاء متفرقة من السودان حتى أضحي مثلاً للسوداني حيثما وجد ، ولقد أشار إلى ذلك المقريزي في كتابه : المواعظ والاعتبار وهو يتكلم عن البجة : (وهو يبالغون في الضيافة فإذا طرق أحد الضيف ذبح له فإنه تجاوز ثلاثة نفر نحر لهم من أقرب الأنعام إليه سواء كانت له أو لغيره وإن لم يكن له شيء نحر راحلة الضيف وعوضه ما هو خيراً

---

(١) مجد الدين ابي السعادات المبارك بن محمد / مصدر سبق ذكره ج ١٠. ص ٧٥. رقم الحديث (٨٤٢٩) .

(٢) المصدر السابق ص ٧٥٤- ١٥٦ الأحاديث رقم ٨٤٢٦- ٨٤٢٨ .

منهـا)[١]. وهــذا عكــس مــا أورده بــن جــبير في كتابــه الــذي حمــل فيــه كــثيرا علــيهم ، ممــا يؤكــد علــى أن الانطبــاع أحيانــاً يــؤثر علــى إنتــاج الكاتــب وإن كــان عالمــاً ومنــصفاً وإن حادثــة واحــدة لا ينبغــي تعميمهــا إذ أن التعميم يجافي النهج العلمي [٢].

إن هـــذه الإشـــارة تؤكـــد علـــى تـــأثير بـــالغ في مجـــال الأخـــلاق والـسلوكيات بـين أهـل مكـة وأهـل هـذه الـبلاد ولقـد تفـوق أهـل الـسودان بهــذا الــسلوك علــى غيرهــم وأضــحى ذلــك مــن الــتراث الــذي يــدخل في مــضمون وجــدان الفــرد الــسوداني وفي نــسيجه الفكــري والروحــي إلى اليــوم في كــل أقــاليم الــسودان عكــس أهــل المــدن ممــن تــأثروا بمــا هــو رافــد . بيــد أن أبنــاء القبائــل لا تــزال هــذه الــسمة لازمــة لهــم دون غيرهــم حتى ولو كانوا في العواصم .

أحـد عـشر : لم يقـف الأمـر عنـد اسـتقرار المهـاجرين مـع النجاشـي في هـذه الفـترة الـتي تجـاوزت عقـداً مـن الزمـان ، وإقـامتهم في الـسودان بـل وافقــوا إلى صــفه حــين نــشوب خــلاف بينــه وبــين ابــن عمــه إذ يعتــبر ذلــك (قــدراً مــن أنــواع دفــع ضــريبة اللجــوء الــسياسي) وانــضموا إلى صــفه القتــال حتــى انتــصر ، الأمــر الــذي يؤكــد علــى أنهــم أصــبحوا يــدورون في دولاب الحــراك الــسياسي الــسوداني وأصــبحوا جــزءاً منــه. وفي هــذا الموقــف دقيقــة

(١) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار / تحقيق دكتور محمد زينهم – مديحة الشرقاوي / مصر/ القاهرة / مكتبة مدبولي ١٩٩٨م . ١٢٧٠هـ . ج١ . ص ٢١٤ .

(٢) أبو الحسن محمد بن جبير : رحلة ابن جبير ص ٤١- ٤٢ .

فقهية هامة إذا اعتمد موقفهم على موازنة سياسية واجتهاد فقهي دون الرجوع إلى مصدر التشريع بمكة وهو من باب فقه الواقع .

ثاني عشر : من خلال قصة الهجرة نلاحظ أن قريشاً قد فكرت وقدرت وبدأت تتحسب لخطورة هذا اللجوء السياسي من قبل المسلمين . ولا سيما من قبل وجوه وأعيان بطون مكة ، فجمعت الهدايا العظيمة للنجاشي ورجال حاشيته وعهدت بالأمر لأجلد رجلين فيها مع محترم من ذوي الحنكة والخبرة في المفاوضات والفت بهم إلى النجاشي .

وكان القصد من هذا التحرك المحموم هو التأثير بغية اتخاذ القرار السياسي الصارم إزاء هؤلاء اللاجئين . مما يدل على بعد تآمري واضح ونظرة إستراتيجية في مجال علاقات قريش (بالحبشة) (أي السودان الحالي) باعتباره منفذا تجارياً هاماً ، وأنه كان يشكل رقماً صعباً وهو ما يمكن التضحية به والسماح لأي جهة أن تسيء إلى علاقتها به . وأن وجود مثل هذه الجيوب المضادة مما يعكر صفو العلاقات المكية السودانية .

بيد أن حصافة النجاشي نبهته إلى أم هذه الهدايا لا تعدو عن كونها رشوة لتحول بينه وبين تحقيق العدل في مجال النظر إلى هذه القضية . ولما علم أبو طالب بما استقر عليه قريش بعث إلى النجاشي برسالة يوصيه فيها بابنه وصحبه ومما جاء في الرسالة :—

تعلم أبيت اللعن أنك ماجد ‏ ‏ ‏ ‏ كريم فلا يشقى لديك المجانب

تعلم بأن الله زادك بسطة وأسباب الخير كلها بك لازب
وأنك فيض ذو سجال غزيرة ينال الأعادي نفعها والأقارب

ومن خلال تفاصيل الحوار والخطة القرشية لاسترداد هؤلاء المهاجرين وقطع الطريق على هذه الدعوة ، وما دار من نقاش يوحي بأن اللغة العربية لا سيما الملكية كانت معروفة لدى النجاشي في السودان الحالي بل من خلال ما ورد قراءة جعفر ابن أبي طالب لسورة مريم وبكاء النجاشي يدل على أن هناك تواصلاً لغوياً عميقاً وبعيد الأثر [1].

وفي تقديري أن مخاطبة أبي طالب لملك الحبشة بأبيات من فصيح اللغة العربية يدل على معرفة الفريقين للغة واحدة عن طريقها أمكن المخاطبة كما يدل على معرفة العرب المكيين بهذه المنطقة وسكانها وأعرافهم وتقاليدهم ولغتهم . وبالنظر إلى الهجرة الثانية نلاحظ أنها قد تشكلت من وجوه قبائل مكة الكبيرة ذات الوزن والثقل ، لا شك أن لهذا التشكيل مدلوله السياسي إذ يدل على التفوق التكتيكي للرسول صلى الله عليه وسلم لأن خروج رجال ونساء على هذا المستوى أمر له دلالته الموضوعية والسياسية الجهة المانحة للجوء السياسي لهؤلاء القوم .

وإذا تمعنا في هذه التشكيلة على وجه التفصيل نلاحظ أن عثمان بن عفان من بني أمية وأبو حذيفة بن عيبة كان من عبد شمس

(١) إبراهيم طرخان : مصدر سبق ذكره ص ٢٣- ٢٤ .

وكذا امرأته سهلة التي ولدت له بأرض الحبشة ابنه محمد ، والزبير ابن العوام فهو من جهة أبيه من بني أسد ومن جهة أمة من بني هاشم وعبد الرحمن بن عوف كان من بني زهرة ومصعب بن عمير من بني عبد الدار وجعفر بن أبي طالب من بني هاشم وقد اصطحب معه وزجته أسماء بنت عميس التي ولدت له بالحبشة ابنه عبد الله .

ولقد وجد المسلمون بأرض الحبشة أمناً وخير جوار كما أشارت إلى ذلك أم سلمة بقولها : (نزلنا بأرض الحبشة (يعني السودان) وجاورنا بها خير جار ، النجاشي أمننا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذي ولا نسمع شيئاً نكرهه) [١].

من خلال ما مضي يمكن القول أن النجاشي قد استجاب للطرح النبوي الجديد واقتنع بحجة المسلمين بل ذهب أكثر من ذلك حيث أرسل رسالة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقد بايعتك وبايعت أبن عمك وأسلمت على يديه وقد بعثت بابني وإن شئت أتيتك بنفسي) [٢].

إن هذه الإشارة لها دلالته الموضوعية وأبعادها التاريخية ، الأمر الذي يوحي بأن الأثر المكي على السودان من الوجهة الإسلامية كان مبكراً إذ يعد ملك السودان والحبشة يومئذ من أوائل ذوي السلطان في العالم ممن استجابوا لهذه الدعوة المكية في بدايات عهدها .

(١) إبراهيم طرخان : مصدر سبق ذكره ص ٢٢ . أنظر أبو العباس أحمد القلقشندي صبح الأعشى في صناعة الأنشاء مصر/ القاهرة / المطبعة الأميرية ١٣٣١هـ- ١٩١٣م. ج ٦. ص ٤٤٥ .

(٢) أبو العباس أحمد القلقشندي : مصدر سبق ذكره ج ٦. ص ٤٤٦ .

ويبدو أن هذه الهجرة الإسلامية الأولى على مستوى العالم أن السودان فتحت الطريق السلمي لدخول الإسلام، وكانت مكة إحدى مراكز نشر الإسلام في الجزء الشمالي من السودان (سودان وادي النيل [1]).

ولعل هذه الخبرة المتمكنة من السودان وبلاده وشعبه هي التي دفعت بذرية عدد من الصحابة للقدوم إلى سواكن والعمل على نشر الإسلام وتعاليمه فيها [2].

إن هذه المرحلة من قبل هؤلاء التابعين لتدل دلالة واضحة على أن لمنطقة الحجاز ومكة على وجه الخصوصية علاقة بالسودان، الأمر الذي أنعكس حتى على المسميات فقد تم اقتباس اسم ميناء العقيق السوداني من الميناء المحاذي له شرقاً بالجزيرة العربية ، وجزيرة بهدور وتسمى أيضاً جزيرة ابن عباس [3].

وللدلالة على معرفة أهل مكة ومن جوارها بالسودان فقد وردت في كتب الرحالة العرب أسماء أربع جزائر هي : سواكن ودهلك والنعمان والسامري . ولعلهم يقصدون بالأخيرتين جزيرة ابن عباس وجزيرة عبري . ولقد وجدت في كلتا الجزيرتين آثار إسلامية تعود إلى العصر الإسلامي الأول أي إلى عهد الفتوحات الإسلامية ،

---

(١) جولييت عدلي غابيوس : مصدر سبق ذكره . ص ٢ .

(٢) محمد صالح ضرار : تاريخ سواكن والبحر الأحمر / السودان / الخرطوم/ الدار السودانية / الطبعة الثانية ١٩٨٨م . ص ٣٤ .

(٣) المصدر السابق . ص ٢٥ هامش (٤) .

وتقع الأخيرة على بعد عشرين ميلاً جنوب سواكن [١] . وإن كان الأولى في تقدير الباحث أن يقال آثار إسلامية تعود إلى عهد الفتوحات الإسلامية ، بيد الأمانة العلمية اقتضت النقل من المصدر دون تحريف.

وقد لا نتجاوز الحقيقة إن قلنا أن أول نقطة دخلها الإسلام بعد مكة وبوفد مكي هي السودان ويمكن أن يؤرخ لدخول الإسلام إلى السودان (الحبشة) بالهجرة الأولى [٢]بمعني أدق إن أول بقعه انداج عليها الإسلام هي الإسلام .

وكثرت بعدئذ قوافل المسلمين على السودان للأهداف التجارية والدعوية . ولعل ذلك هو الذي أدى لاستقرار المسلمين على طول الساحل الشرقي لأفريقيا والسودان . حيث امتدت مقاطعاتها من سواكن على ساحل البحر الأحمر إلى مقديشو وبرافا وممبسا وزنزبار (زنجبار) وكلوة على المحيط الهندي وامتزج المسلمون بالوطنيين وصاهروهم [٣].

وذهب بعض الباحثين إلى التأكد بأن الهجرة الأولى والثانية كانتا إلى بلاد علوة في السودان [٤]. ويلاحظ أن الأمر لم يقتصر على الهجرة إلى السودان وإنما تعداه إلى إقامة مراكز وموانئ كميناء باضع على الساحل الشرقي للسودان مما يدل على تواجد عظيم

(١) المصدر السابق .

(٢) إبراهيم علي طرخان : مصدر سبق ذكره . ص ٢٨ .

(٣)المصدر السابق . ص ٢٩ .

(٤) جولييت عدلي غابيوس : مصدر سبق ذكره . ص ١ .

للعنصر العربي ، ولم يقتصر هذا التواجد على هذه الجزر والسواحل الغنية بالآثار الإسلامية التي تشير إلى هجرات إسلامية مبكرة إلى هذه المناطق مثل آثار منطقة ادرهيب جوار طوكر ومامان جوار كسلا وما وراء هذه المناطق التي كانت معروفة بعذوبة مياهها مثل دلتا طوكر ونهر وعطبرة والخيران الغنية بالمراعي الخصبة. ولعل ذلك مما يؤيد النظرة القائلة بأن الهجرة الأولى والثانية كانت إلى السودان [1]. ولعل ما ذكره ابن سليم الأسواني من أنه كان للمسلمين في عاصمة علوة رباط فيه جماعة من المسلمين ومسجد يؤدون فيه شعائرهم الدينية[2]. يؤكد ما سبق الإشارة إليه من أن الهجرة الأولى والثانية كانت إلى السودان الحالي . وأن الحبشة كمصطلح متداول في كتب الإسلاميين الأقدمين لا يعني سوي السودان الحالي بصورة أخري ، وإن التجاوز اللفظي أمر معهود كما هو الحال بالنسبة لبلال الحبشي وهو نوبي سوداني من شمال السودان ، وشتان ما بين شمال السودان الحالي والحبشة الحالية من الناحية الجغرافية البحتة .

مما لا شك فيه أن هذه الإشارة تؤكد على أن دخول المسلمين لهذه المنطقة كان مبكراً جداً وأن دخولهم كان من أجل التجارة وفيه دليل أيضاً على تسامح ملوك علوة مع التجار المسلمين الذين قدموا إلى السودان عن طريق شرق السودان [3]وفيه دليل آخر على أن الهجرة

(١) عبد الله حسب الله : مصدر سبق ذكره . ص . ١١.

(٢) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : المواعظ والاعتبار . ج ٣. ص ٢٦٣ .

(٣) المصدر السابق . ج١. ص ٣٠٩ .

الأولى والثانية كانت إلى هذه المنطقة لأن وجوداً بهذا القدر وبهذه الكيفية لا يمكن أن يكون طارئاً . وفي القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) هاجرت جماعة من عرب هوزان واستقرت في أرض البجة حيث عرفوا بالحلانقة[١]ثم انتقلت هذه الجماعة إلى منطقة التاكا في كسلاً [٢].

العلاقات الاقتصادية :

ولقد عرفت منذ القدم عدة طرق تربط السودان بالخارج وكذا عدة موانئ ولكن أهمها موانئ بلاد العرب الشمالية مثل ميناء الشعيبة وجدة وينبع ، وميناء الشعيبة أشار إليه كل من البكري [٣] وياقوت الحموي[٤] وهي مرفأ مكة ومرسي سفنها قبل جدة يقول ابن المجاور : الشعيبة هو خور عظيم ومرسى قديم مقابل وادي المحرم لا شك أنه قبل جدة لأن ما في تلك النواحي مرسى أدنى ولا آمن عاقبة وهي تقع جنوب جدة الحالية على مسافة ثمانين كيلو متراً[٥] . ولقد استخدمت بلاد الحجاز ميناء الشعيبة فترة من الزمن ولقد روى عن

---

(١) وهي أسم قبيلة ذات أصول عربية حامل السوط ، ويقال لهم الهلنكة واللفظة أمهرية ، ويقال أنهم ينتسبون إلى سعد حلاق الرسول صلى الله عليه وسلم . وأنظر سيد أحمد العقيد : العلاقات المهدوية : مرجع سبق ذكره – الفصل الأول .

(٢) A . Poul : A Hhistory . Of The Beja Tribes Of The Sudan . England , Cambridge ١٩٥٤ . P. ٧٣.

(٣) ابن عبيد الله بن عبد العزيز البكري . ت (٤٨٧هـ) معجم ما استعجم من اسماء البلدان والمواضع / تحقيق مصطفي السقا / مصر / القاهرة / د.ن / ١٩٤٧م ج ٣ . ص ٣٠٩ .

(٤) شهاب الدين أبو عبد الله الحموي / معجم البلدان / بيروت/ دار صادر ١٩٥٥م . ج٥ . ص ٢٧٥ .

(٥) أحمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة / السعودية / الرياض/ ١٩٦٥م. ص ١٧٢ .

وهب بن منبه أن سفينة دفعتها الريح إلى الشعيبة عندما كانت المرسى بلاد الحجاز فاستعانت قريش في تجديد بناء الكعبة بخشب تلك السفينة [١].

وكان أهل مكة يستعملون ميناء الشعيبة في نقل متاجرهم إلى السودان ، ولعل الذي يؤكد ذلك ما أوردة الطبري [٢] وابن سعد [٣] إن الذين هاجروا الهجرة الأولى متسليين سراً من المسلمين انتهوا مرسى الشعيبة وركبوا سفينتين للتجار الأحباش (السودانيين) حملتهم إلى أرض الحبشة إذ لا يخفي التجاوز في التسمية فكل من يسمي حبشياً كبلال وأم أيمن وابنها هم سودانيون كما سبق أن ذكرنا .

ولقد ظلت الشعيبة هي ميناء مكة ومتنفسها البحري قبل السودان وواصلة عقد العلاقات الاقتصادية والتجارية بين البلدين إلى عهد خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢٦هـ — ٦٤٦م) حين خرج بنفسه رضي الله عنه إلى جدة ، وبعد التشاور أعلن اتخاذها مرسى لمكة [٤].

ومنذ ذلك الوقت بدأت الشعيبة في التواري عن دورها . ولكنها بالرغم من ذلك ظلت ميناء لبعض السفن الواردة من بلاد اليمن ومن

---

(١) ياقوت الحموي : مصدر سبق ذكره ج٥ . ص ٢٧٦ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك : مصدر سبق ذكره . ج ٢. ص ٩٦ .

(٣) محمد بن سعد : كتاب الطبقات . مصر / القاهرة / د.ن ١٩٢٧م ج ١ ص . ٢٠٤ .

(٤) ياقوت الحموي : مصدر سبق ذكره ج ٥ . ص ٢٧٦/ أنظر ابن المجار : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر / هولندا / ليدن/ د.ن /١٩٥١م ، القسم الأول ، ص ٤٢ .

بلاد الحبشة وشرق السودان .وأن كانت الشعيبة قد اندثرت كميناء بالدرجة الأولى ولكن لم تختف معالمها البارزة تماماً حيث توجد بها الآن محطة تحلية مياة الشعيبة ، بيد أن ذلك لم يحل دون استخدام بعض السفن الصغيرة من صيادي الأسماك وغيرهم لها [1]. وهذه سنة ماضية في المدن والموانئ أنها ى تتنازل عن مكانتها تماما بصورة مفاجئة .

ولقد ظلت جدة التي تبعد عن مكة بحوالي خمسة وخمسين ميلاً جنوباً ميناءاً صغيراً إلى (٢٦هـ – ٦٤٦م) حيث نقل الخليفة عثمان مينا مكة من الشعيبة إلى جدة . وذلك عندما طلب أهل جدة أن ينقل ميناء مكة من الشعيبة إلى جدة فوافقهم الخليفة على ذلك ولعله رأى قربها من مكة. ولربما كان جودة موقعها معقولاً في تحويل الميناء ومنذ تلك اللحظة أصبحت جدة ميناء مكة الأول ومنفذها على السودان ، وأصبحت نقطة انتهاء رحلة الحجيج القادمين من مصر واليمن والسودان وغرب أفريقيا عبر السودان .

ولقد ظلت العلاقات السودانية المكية على متانتها وقوتها نتيجة للحجيج القادمين من مصر أو المغرب العربي أو غرب أفريقيا أو السودان عن طريق الموانئ السودانية الشرقية التي كانت تشكل المنفذ الوحيد لهذه الأفواج عبر تاريخ طويل من الزمن والموانئ المكية الغربية ، وظل السودان يشكل معبراً هاماً إلى مكة دون منازع عن

(١) أحمد الجاسر : سبق ذكره ص ١٧٥ .

طريقة يذهب اللاجئون من المضطهدين من قبل الدول الإقليمية الإسلامية والتي اقتطعت من جسم الدولة الإسلامية سواء كانت هذه الدولة في مصر أو تونس أو المغرب العربي ، ولما كانت مكة تشكل حرماً آمناً ومنتجعاً يجد الأمان واللاجئ الجوار جاءها الخائفون والمضطهدون عن طريق السودان .

وفي (٢٥٥هـ – ٨٦٩م) خرج إبراهيم بن الصوفي العلوي على السلطان أحمد بن طولون وتحاربا فترة من الزمن وانهزم العلوي فمضى إلى عيذاب ذلك الميناء السوداني ومنها إلى مكة ، ولقد ظلت عيذاب كما أضحت جدة ميناءين يخدمان العلاقات الاقتصادية بين السودان ومكة وخاصة عيذاب حيث كان الحجاج [١] القادمون من مصر والمغرب وغرب أفريقيا وأواسط السودان يركبون الجلاب من عيذاب إلى جدة [٢].

وتطورت العلاقات التجارية والروحية بين مكة والسودان عندما تحولت قوافل الحجاج من مصر وبلاد المغرب عن طريق سيناء إلى ميناء عيذاب بسبب الوجود الصليبي في الشام وفلسطين . وبالتالي أصبحت أهم ميناء يؤدي دورة في خدمة الحجاج المصريين والمغاربة والأفارقة والسودانيين لمدة لا تزيد على مائتي سنة من الزمان (٤٥٠ –

---

(١) محمد صالح ضرار : مصدر سبق ذكره ص ١٨١ .

(٢) عماد الدين إسماعيل بن علي المعروف بأبي الفداء : تقويم البلدان / فرنسا/ باريس/ د .ن/ ١٩٤٠م ، ص ١٢١.

إلى ٦٦٠هـ) (١٠٥٨ – ١٢٦١م) أيام السلطان بيبرس الذي فتح طريق سيناء [١].

ومما يؤكد على أن العلاقات السودانية المكية خلال هذه الفترة كانت في غاية الازدهار استفادة مكة من الحجاج الذين كانوا يصلون من مصر والمغرب والسودان عن طريق هذا الميناء السوداني إلى جدة . فكان أمراء مكة يفوضون ضرائب على هؤلاء الحجاج وتجمع هذه الضرائب في عيذاب أو جدة ومقدارها سبعة دنانير ونصف مصرية على كل حاج [٢]. مما يعني أن المنفذ السوداني كان يشكل عصب الاقتصاد المكي خلال هذه الفترة الطويلة من الزمان.

ويبدو للباحث مما كتبه ابن جبير أن المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج القادمين من عيذاب المورد الأساسي لإمارتي مكة والمدينة في هذه الفترة ، وكان لا بد من تحصيل هذه الضرائب ولا يعفي منها أحد على الإطلاق ، وكان الأمر يصل إلى حد أن لم يؤد المكوس المفروضة المكية يمنع من الحج [٣].

ومن خلال ما مضي نلاحظ أن السودان قد شارك مشاركة فعالة في تنمية موارد مكة الاقتصادية . وأن تنميتها الاقتصادية وازدهار تجارتها كانت تعتمد بالدرجة الأولى على ما يدل على ما

(١) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : المواعظ . ج ١ ص ٣٢٧ .

(٢) أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت ٦١٤هـ - ١٢١٧م) : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار / لبنان / بيروت/ د . ن /١٩ / ص٢٨ .

(٣) ابو الحسين محمد بن أحمد بن جبير : تذكرة بالأخبار . ص ٢٨ .

يأتيها من قبل السودان . الأمر الذي له دلالته التاريخية والحضارية .

بيد أن التشدد في المعاملة والإفراط في تحصيل هذه الضرائب من قبل أمراء مكة ظل هو الساري المفعول والمعمول به حتى كانت (٥٧٣هـ - ١١٧٦م) إذ أبطل السلطان صلاح الدين هذه الرسوم وعرض على أمراء مكة عوضاً عن تلك المكوس (الضرائب) مبالغ كبيرة وأوقافاً قدرها المقريزي بألف دينار وألف أردب قمحاً وإقطاعات بصعيد مصر واليمن [١].

ويبدو أن عيذاب كان على قدر من الأهمية والخطورة وأن مواردها ومصادرها كانت تشكل رقماً صعباً وكبيراً في ميزانية مكة وإدارة شئونها ، الأمر الذي تنبه له الصليبيون الموجودون بالشام حيث أرادوا أن يفرضوا حصاراً اقتصاديا على مكة وحرمانها من أهم مواردها المالية وتدمير اقتصادياتها بمصادرة السفن القادمة والرائحة إليها من عيذاب . ففي (٥٧٨هـ - ١١٨٢م) قامت جماعة من النصارى بقيادة البرنس رينوت ارناط صاحب مدينة الكرك بغزو عيذاب وتعطيل حركة الحج . وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة [٢]. يشير ذلك إلى أن دور هذا الميناء كان عظيما بالنسبة لمكة حيث كان يمثل مصدراً

---

(١) تقي الدين أحمد بن على المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك / تحقيق مصطفي محمد زيادة / مصر / القاهرة/ دار التأليف والنشر ١٩٧١م ج١ . ص ٦٤ أنظر محمد صالح ضرار : مصدر سابق سبق ذكره ص ١٨١- ١٨٢ .

(٢) محمد صالح ضرار : مصدر سبق ذكره . ص ١٨٢ .

للأطعمة والمؤن لصالح مكة طوعاً ويؤكد ذلك على نكانة مكة لدى الأهلين .

وكانت عيذاب تشكل مجمعاً كبيراً ونقطة اقتصادية هامة ومعبراً تجارياً خطيراً بالنسبة لمكة ، الأمر الذي اقتضي هذا التخطيط الصليبي الذي أراد فرض حصار اقتصادي وغذائي على الحرمين ومنع محاولة دخولهما وحرمانهما من أهم مصادر دخليهما وقطع هذا السيل البشري المبارك .

ويدرك المرء عظمة وضخامة دور هذا الميناء الذي استرعى اهتمام الصليبين في الشام ن وغزوه باعتباره منفذاً ومورداً اقتصادياً هاماً لمكة ما ذكره ابن جبير في رحلته أنه في (٨٥٠ هـ – ١١٨٤م) ورد خبر إلى عيذاب مفاده غرق أربع سفن بها عدد ألف وثلاثمائة حاج غرقوا جميعاً [١].

أن هذا الرقم بكل المقاييس هو رقم كبير يدل على مدى الدور الكبير الذي كان يقوم به هذا الميناء في رفد مكة اقتصاديا واجتماعياً وثقافياً وروحياً ، إذ كان يشكل نقطة ارتكاز وبوابة لا غني عنها لمكة . لا سيما إذا علمنا أن الحج يختلف عن الأزمنة الحديثة من حيث الزمن الذي يمكثة الحاج في طريق الحج ذهاباً وإياباً وآثاره على المناطق التي يمر بها . السودان من أكبر هذه المناطق

(١) محمد صالح ضرار : مصدر سبق ذكره . ص ١٨٣ . أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير : تذكرة . ص ٢٩- ٣٠ .

مساحة وهو البوابة التي لا بد وأن يكون قد تأثر بذلك وأثر فيمن اتخذوه منفذا للحج . ولا غرو أن يكون للسودان أثر على التكوين الثقافي والاجتماعي والمكي وكذلك لمكة على السودان . هذا فيما يتصل بعيذاب ولم يقتصر الأمر عليها وإنما هناك موانئ أخرى كانت تشكل منافذ للهجرة من وإلى السودان ومن وإلى مكة .

سواكن :

تعتبر سواكن من أقدم الموانئ التي ظهرت في شرق السودان ورغم قدم هذا الميناء لا نستطيع أن نضع تاريخاً معيناً لظهورها . ولعل تأسيس ميناء سواكن يرجع إلى العهد الفرعوني أو البطلمي . لأن من ينظر إلى موقع هذا الميناء في البحر من الناحية الإستراتيجية ومن الناحية الاقتصادية والسياسية لا بد من أن يؤكد بأن هذا الميناء قد تم استخدامه من قبل هذه القوة السياسية التي تعاقبت على مصر وكانت لها سيادة على البحار يومئذ . هناك آراء تذهب إلى أن تأسيس سواكن يعود إلى عرب جنوب الجزيرة العربية . ولعل ذلك الرأي مرده إلى أن سواكن لم تظهر باسمها الحالي إلا بعد دخول العرب المنطقة [1]. ولكن الراجح عندي إن دخول العرب هم أقدم جداً إلى ما قبل العهد الروماني بكثير جداً ، هذا إذا أخذنا بنظرية دخولهم المتأخر . أما إذا أخذنا بالنظرية الجغرافية من أن الجزيرة كانت ملتحمة بأفريقيا وأن البحر الأحمر فإن لا يعدو عن كونه أخدوداً ،

(١) محمد عوض : السودان الشمالي سكانه وقبائله / مصر / القاهرة / د .ن / ١٩٥١ م ص ٣٥ .

وأخـــذنا في الاعتبـــار إطـــلاق تـــسمية الأثيـــوبيين للقـــاطنين علـــى كـــلا الشاطئين للبحر الأحمر فإن الأمر يكون أبعد من ذلك .

لـــذا لا يـــستطيع الباحـــث أن يـــؤرخ لـــدخول العـــرب الـــسودان بفـــترة زمنيـــة محـــدودة . ذلـــك لأت دخـــولهم إلى هـــذه المنـــاطق هـــو قـــديم جـــداً ، الأمـــر الـــذي يـــدل علـــى عمـــق العلاقـــة وأنهـــا علاقـــة ضـــاربة في جـــذور التـــاريخ . حيـــث يـــذكر المؤرخـــون وقـــوع بعـــض العـــرب أســـرى في يـــد الرومـــان بعـــد حـــربهم مـــع البجـــة الـــذين ثـــاروا علـــى الدولـــة الرومانيـــة بمـــصر بتحـــريض مـــن الملكـــة زنوبيـــا ملكـــة تـــدمر . وكـــان مـــن ضـــمن الأســـرى البجـــة العـــرب الـــذين عـــبروا إلى أرض البجـــة في شـــرق الـــسودان وادي النيـــل وأصـــبحوا رعايا ملك البجة [١].

ولا يـــستبعد الباحـــث وجـــوداً مكيـــاً بالـــسودان منـــذ ذلـــك التـــاريخ حيـــث كـــان البحـــر الأحمـــر مـــن أكثـــر البحـــار سـفناً في التـــاريخ القـــديم . وقـــد تمكنـــت الـــسفن منـــذ بدايـــة صـــنعها في الإبحـــار علـــى طـــول البحـــر الأحمـــر شمـــالاً وجنوبـــاً ورســـت علـــى مرافـــئ ومـــوانئ الـــشاطئين الغربـــي والـــشرقي للتـــزود بالمـــاء والطعـــام والتجـــارة . وكانـــت الـــرحلات تقـــضي الأيـــام والليـــالي . وذكـــر الرحالـــة العـــرب أن الرحلـــة مـــن ســـواكن إلى جـــدة كانـــت تـــستغرق يومـــا وليلـــة . ممـــا يعـــني ســـهولة الرحلـــة وقـــرب وإمكانيـــة التواصل الثقافي والحضاري بين كل من مكة والسودان [٢].

---

(١) يدوي الطاهر أحمد بدوي : مصدر سبق ذكره . ص ١٨ .

(٢) فيليب رفلة : العلاقات التاريخية والاقتصادية بين الجمهورية العربية وجمهورية السودان / مصر / =

إن هـذه الإفـادات التاريخيـة لهـا دلالـة قويـة وتـشير إلى أن هجـرات العـرب مـن مكـة وسـواها مـن جزيـرة العـرب إلى الـسودان وادي النيـل أو الـسودان الـشرقي بمعنـاه الواسـع كانـت قـد بـدأت قبـل المـسيحية وقبـل ظهـور الإسـلام ، فهـي قـد جـاءت أحيانـاً عـن طريـق بـاب المنـدب إلى إريتريـا ثـم إلى الأراضـي الـسودانية الحاليـة الـساحلية أو الداخليـة فيهـا وأحيانـاً أخـرى جـاءت مـن الحجـاز إلى عـرض البحـر الأحمـر إلى مرافـئ عيـذاب وسـواكن وباضـع . وربمـا قـذفت الأنـواء بعـض الـسفن إلى سـواحل البحـر العربية كما حدث مع سفينة ابن بطوطة [(١)].

ويلاحـظ أن العلاقـة مـع مكـة لم تكـن علاقـة تجاريـا وروحيـة فقـط وإنمـا أضـحي لمكـة سـلطان علـى الـسواحل أي أجـزاء مـن الـسودان الحـالي ففـي (٧٢٥ هـ _ ١٣٢٤م) كـان سـلطان جزيـرة سـواكن حـين وصـول ابـن بطوطـة لهـا هـو الـشريف زيـد بـن أبـي نمـى وأبـوه هـو أمـير مكـة وأخـواه أمـيران عليهـا مـن بعـده وهمـا عطفيـة ورمثـة وصـارت إليـه الإمـارة من قبل البجة فإنهم أخواله وهو الأرتيقة عائلة باصفار [(٢)].

والـذي يعنينـا مـن هـذه الإشـارة أن هنـاك رباطـاً عرقيـاً ، إذ لم يقتـصر الأمـر علـى الأثـر الثقـافي والاقتـصادي أو الـسياسي أو الروحـي ، وإنمـا تعـداه إلى الـسلطة الـسياسية والمـصاهرة العرقيـة ووجـود فـرع

=

القاهرة/ د . ن/ط ١٩٦٥م . ص ١٣٨ .

(١) بدوي الطاهر أحمد : مصدر سبق ذكره . ص ١٨ .

(٢) محمد صالح ضرار : مصدر سبق ذكره ز ص ٩١- ٩١ .

للأشراف بالسودان أبناء عمومة وأخوال أشراف مكة . وأضحي لشريف مكة سلطة سياسية إضافة للسلطة الروحية التي دفعت بمماليك السودان الإسلامية لإرسال صرة للحرمين وإرسال محمل سنوي عبر التاريخ منذ أن وجدت ممالك إسلامية ووجود إسلامي نافذ على الجانب الشرقي من السودان في القرن الرابع والخامس والسادس عشر الميلادي .

ولعل مما يؤكد على الأبعاد التاريخية لهذه العلاقة المكية بالسودان الشرقي ما أوردة الأصبهاني أبو الفرج في كتابه الأغاني من أن عمارة بن الوليد وعمرو بن العاص كانا تاجرين وقد خرجا إلى النجاشي لمعرفتهما وخبرتهما بهذه المنطقة وكانت أرض الحبشة (السودان) لقريش متجراً ، وكان تجار مكة قبل الإسلام يقصدون ساحل البحر الأحمر الغربي لشراء ريش النعام والجلود وغيرها من السلع التي كانت متوفرة في الساحل الغربي لبيعها في أسواق الحجاز واليمن والشام وكانوا يخرجون بتجارتهم في قوافل عظيمة [1].

ولقد كان حجم التبادل كبيراً بين مكة والسودان حيث يتعرض الاصطخرى لحجم هذا التبادل بين بلاد العرب وساحل البحر الأحمر الغربي حيث يؤكد على أن جلود النمور والجلود المملحة بل أكثر جلود اليمن التي تدبغ للنعام يأتي من باضع وجزء الساحل

(١) أبو الفرج على بن الحسين الأصبهاني (٢٨٤ – ٣٥٦هـ) مصر / القاهرة / طبعة بولاق ١٩٠٥م. ج٨ . ص ٥٢ .

الغربي للبحر الأحمر [١].

العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية (بعد القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي):

يلاحظ أن الحجاز أو مكة كانت رافداً قويا من حيث وجود الهجرات إلى السودان عن واستقرارها فيه . حيث يذكر أن قبيلة (بلى) التي هاجرت من أقصى حضرموت إلى الحجاز جاءت إلى السودان عن طريق مكة وأضحت لها السيادة على سواكن التي كانت تشكل منفذاً هاماً للحجاج من مصر والمغرب وغرب أفريقيا .

ولقد كان في عهد المماليك الذي بدأ (٦٤٨هـ - ١٢٥٠م) الطريق الوحيد للحجاج مصر والمغرب بدلاً عن سواكن الميناء السوداني عيذاب ، الأمر الذي له دلالته الروحية والثقافية والفكرية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية ، هذا إذا علمنا أن الحاج لا بد له من الإقامة ذهاباً وإياباً أسابيع وشهوراً إن لم نقل سنوات .

ونلاحظ أن مصير سواكن قد أرتبط بمكة سياسياً واقتصادياً وثقافياً .

فبعد أن ضم السلطان سليم الأول مصر والحجاز وسواكن ومصوع لسلطته وحضوره لصلاة الجمعة بجامع حلب ودعاء الخطيب له

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارس الاصطخرى المعروف بالكوفي (ت ٣٤٦هـ) : المسالك والممالك /مصر / القاهرة / دار القلم . ١٩٦١م . ص ٣٢ .

بقوله : (اللهم انصر خاقان البرين وسلطان البحرين خادم الحرمين الشريفين) . ارتاح السلطان لهذا اللقب وسجد وشكر الله تعالى ونتيجة لذلك فقد منح خادم الحرمين السلطان سليم الأول أهل الحرمين عدة امتيازات :

أولاً : عدم تجنيدهم .

ثانياً : عدم تحصيل أي رسوم عوائد أو ضرائب سواء من الأهالي الحضريين أو أهل البادية .

ثالثاً : جعل مرتبات سنوية للأشراف وزعماء العشائر وكذلك الحال في سواكن ومصوع لأنهما تعتبران من مدن الحرمين [1].

مما لا شك فيه أن هذا الأجزاء له دلالته التاريخية والسياسية والموضوعية . إذ يؤكد على أن ارتباط سواكن السودانية بمكة هو ارتباط عضوي عرقي وسياسي وإداري . وأنها كانت تتأثر بالوضع سلباً وإيجاباً كما هو العكس بالنسبة لمكة وعلاقتها بسواكن أو عيذاب .

ولقد اشتهرت جدة بتصدير واردات الهند واليمن وأفريقيا الشرقية من العطور والأقمشة واللؤلؤ والمرجان والسبح والمسك والبقوليات الجافة والسجاجيد والجلود ما يهم الحجيج [2]. وكان تجار سواكن يشترون من جدة ومكة كل ما تحتاجه الأسواق الأفريقية

(١) محمد صالح ضرار : مصدر سبق ذكره . ص ٦٤ .

(٢) تقي الدين أحمد بن على المقريزي : السلوك . ج ٤. ص ٦٧٠ ، ٦٧١ .

من الأسواق الأفريقية من بضائع هندية كثياب النساء وحليهن والأواني المنزلية وشتى أنواع الطعام والسكر الهندي والبن وكذلك تجلب الجمال وكميات من الحديد لصنع الحراب والمدي .

ولعل ما ذكره ابن بطوط[١] فيه دليل وإشارة إلى ذلك حيث ذكر أثناء رحلته من جدة إلى سواكن أن منصور بن أبي نمى دعاه إلى الركوب معه في جلبته ولكنه رفض . وابن أبي نمى هو من العائلة الحاكمة في مكة من الأشراف بمكة . حيث كانت سواكم تتبع إدارياً لمكة ، وأبت نفوس الأسرة الحاكمة إلا أن يجعلوا عليها واحداً منهم حاكماً عليها . ولم يتم ذلك عن طريق القوة العسكرية وإنما تم عن طريق المصاهرة والرباط العرقي الذي أوصل هذه العائلة إلى الحكم في هذا الجزء من السودان كما قدمنا في صفحات سابقة .

وكانت سواكن تصدر جلود النمور والبقر المملحة وتصدر باضع أنياب الفيلة وريش النعام[٢] . أما ميناء عيذاب فقد اشتهر بتصدير المعادن (الذهب والزمرد و اللؤلؤ) وكذلك الجمال التي تكثر في شرق السودان .

وروى ناصر خسروا أن رجلاً ثقة من أهل عيذاب حكي له أنه كان في سفينة محملة بالجمال لأمير مكة . وكذلك عيذاب كانت

(١) أبو عبد الله البواتي الطنحي : مهذب رحلة ابن بطوطة/ تهذيب أحمد العوامري بك ومحمد جاد المولى / مصر /القاهرة/ مطبعة بولاق ١٩٣٤م . ص ١٨٢ .

(٢) ياقوت الحموي : مصدر سبق ذكره ج ١ . ص ٤٠ .

تستقبل السلع الواردة من مصر ومن داخل السودان وتصدرها إلى موانئ غرب بلاد العرب [١].

هذه إشارة ذات دلالة اقتصاديا وثقافية حيث أن الجمال كانت وسيلة اتصال وعلامة فخر ودلالة على رياش المالك لها ، وأن السودان كان يشكل مصدراً هاماً لها أنها بهذا القدر كانت تصدر لمكة من السودان .

أما سواكن فقد كانت فقد كانت تصدر السمن والألبان إلى جدة . وقد ذكر بن بطوطة أن الألبان والسمن تكثر في سواكن ومنها تجلب إلى مكة [٢] وتصدر سواكن أيضاً الحصر المصنوعة من سعف الدوم (المقل) . وجميع أنحاء الحجاز واليمن كانت تفرس المساجد بهذه الحصر . وقيل ما من حاج يبرح مكة إلا ومعه حصيرة سودانية صغيرة مصنوعة في هيئة سجادة صغيرة للصلاة . وهذا يعكس الأثر الثقافي والحضاري على مكة ودلاله على أن البلدين تربطهما روابط مصيرية .

كما أن موانئ السودان الشرقية كانت تستقبل السلع من أواسط السودان وتتولى تصديرها إلى موانئ بلاد العرب ، اشتهر بذلك التجار الذين عرفوا (بالسوادنية)، فقد كانوا يجلبون سلع الهند والصين وبلاد العرب إلى أواسط السودان ويعودون محملين بسلع أواسط السودان التي منها الذهب والصمغ والتبغ وريش النعام والجلود

(١) عبد الرحمن حسب الله : مصدر سبق ذكره . ص ١٥٥ .

(٢) أبو عبد الله محمد البواتي الطنحي : مهذب رحلة ابن بطوطة . ص ١٥٥ .

والجياد الدنقلاوية التي كانت تباع في اليمن بثمن مجز . وكذلك كانوا يجلبون من التاكا (كسلا) الذرة ولا تقلع سفينة من سواكن إلا و بها ذرة من التاكا كما أشار إلى ذلك الفاسي [١] بقوله: (أن غلاء كان بمكة سنة سبع وتسعين وسبعمائة ودام كذلك أياماً يسيرة ثم فرج الله على الناس قريباً بجلاب وصلت من سواكن). وفي موضع آخر ذكر بأن سبب هذا الغلاء مع المقدر (الذرة) قلة الغيث بمكة عما يعهد ولم يصل إلى مكة من الذرة من بلاد سواكن واليمن .

ولعل ذلك يشير بوضوح أن علاقة مكة بالسودان كانت علاقة مصيرية تجاوزت كل المقاييس والحدود ، وكان السودان يشكل مورداً هاماً للطعام والأرزاق والمؤن . إذ كان سلة غذاء هامة بالنسبة لمكة والحجاز فترة طويلة من الزمن .

ولعل هذا يفسر مدى اهتمام الأشراف بمكة بمصاهرة أهل سواكن والإقامة بينهم . مما يؤكد على وجود نظرة استراتيجية في هذه العلاقة التي تجاوزت حدود الاقتصاد إلى المصاهرة وإقامة أفراد وعوائل من الأسرة الحاكمة المكية بالسودان الشرقي حتى أصبحوا جزءاً من النسيج السوداني إلى يومنا هذا متمثلين في الأرتيقة (الأشراف الموجودين بالسودان الشرقي) .

ويؤكد ابن بطوطة ذلك بقوله : (وحبوبهم الجوجور وهو نوع

(١) تقي الدين محمد بن أحمد الحسني (ت ٨٣٢هـ - ١٤٢٨م): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام / مصر / القاهرة / د . ن / ١٩٥٦م . جزءان . ص ٢٧٤ – ٢٧٦ .

من الذرة يجلب منها أيضا إلى مكة[١] . ولأهمية هذه العلاقات فقد كانت هناك عدة طرق تربط بين أواسط السودان وموانئ شرق السودان مثل الطريق الذي يمر بمرتفعات البحر الأحمر حتى محمد قول التي تقع شمال بور تسودان الحالية ثم عيذاب . وفي هذا الطريق توجد علامات على هيئة بناء حجري يوجد في سفوح الجبال وفي شكل هرم مطلي بلون أبيض يستدل به المسافرون من مسافات بعيدة . كما كانت هناك آثار مياه بجوار هذه المعالم الجبلية ومن أمثلة هذه العلامات بناء قرب (محمد قول) على مسافة ميلين . هذا بالإضافة إلى وجود كثير من المباني في أكثر الطرق جبال البحر الأحمر ويعتقد أكسوم هى التي بنتها لحجاج بيت المقدس حتى لا يضلوا الطريق [٢].

وما يرجع أن هذه التسهيلات وأن هذه المعرفة اللصيقة بالسودان من قبل القبائل العربية المكية جذبت جماعات من عرب هوزان عبر البحر الأحمر حيث استقرت في أرض البجة وعرفت باسم الحلانقة . ويعتبر بأول (Pawl) هذه الجماعات أول من استقر من العرب في أرض البجة ، ومن الأدلة أيضا خروج زعيم فقط إبراهيم القفطي إلى الحج عن طريق بلاد البجة في جماعة من أهلة وأنصاره سنة (٢٠٤هـ – ٨١٩م) ورغم أن زعيم فقط لم ينج في عبور البحر لاعتداء البجة عليه إلا أن محاولته تدل على أن العبور من السودان إلى مكة كان ممكناً ومألوفاً . وأن السودان كان يشكل همزة الوصل

(١) أبو عبد الله محمد البواتي الطنحي : مصدر سبق ذكره (مهذب) ص ١٥٥ .

(٢) عبد الرحمن حسب الله / مصدر سبق ذكره . ص ١٢٧ .

بين مكة ومصر وغرب أفريقيا والمغرب العربي .

ويلاحظ أن السودان كان معبراً كما كان مأوى لكل المغضوب علية من قبل الدويلات الإسلامية أو أنظمة الحكم . كما كان معبراً لمكة ، وكان مأوى لمن يطرد أو ينفي من مكة ، يتبدى ذلك بوضوح في هروب الصوفي العلوي ، وهو إبراهيم بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب . وذلك بعد هزيمته هو وأنصاره على يد العمري ، فهربوا إلى الحجاز عن طريق عيذاب في حوالي (٢٩٠هـ – ٨٧٣م)[(١)]، فكما كان السودان هو منفذا ومتنفساً للمهاجرين الأوائل حيث وجدوا فيه الأمان ثم عادوا إلى مكة والمدينة، كان في القرون اللاحقة مأوى ومنفذا أيضاً يرتبط عرقياً وروحياً وسياسياً وتجارياً .

ومن الأدلة أيضاً القوية على هذا الرباط رجوع قبيلة بني يونس إلى الحجاز عبر البحر الأحمر من عيذاب بعد النزاع الذي نشب بينهما وبين بني بشر[(٢)]. ومن العجيب أن هناك تداخلاً عجيباً بين أهل مكة وشرق السودان إلى حد يستدعى الدهشة ، فقد كان أهل مكة يلمون بلغة البجة بين القرن الأول والثالث الهجري إلا أن ذلك لا ينفي إمكانية الاستدلال على ما سبق ذكره ، ولعل هذا من الأدلة القوية

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون /(ت ٨٠٨هـ - ١٣٢٣م) العبر وديوان المبتدأ والخبر / مصر / القاهرة / د . ن /١٩٦١م . ج٣ القسم الثاني . ص ٦٤٤ .

(٢) تقي الدين أحمد بن علي المتوفي (٨٤٥هـ - ١٤٤١م) البيان و الأعراب تحقيق عبد المجيد عابدين/ مصر / القاهرة / د.ن / ١٩٦١م ص ١٥ .

في تقديري على أن المهاجرين الأوائل في الهجرة الأولى والثانية من أهل مكة كانوا على علم بلغة أهل السودان وأن هذه الهجرة كانت إلى السودان الحالي وليس الحبشة الحالية . حيث يذكر المقريزي [(١)] أن المعاهدة التي تمت بين عبد الله بن الجهم وكنون بن عبد العزيز كبير البجة في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي . ترجمها للبجة زكريا بن صالح المخزومي وعبد الله بن إسماعيل القرشي .

هذه الإشارة لها دلالتها التاريخية والثقافية والحضارية في تقدير الباحث :

أولها : أن اسم كبير كنون بن عبد العزيز هو أسم عربي محض يؤكد على عمق وأبعاد هذه العلاقة وتمكن العروبة في هذا الجزء منذ فترة مبكرة .

وثانيها : أن المترجم الأول للمعاهدة هو من بني مخزوم وهو بطن من قريش أي من أهل مكة والثاني من قبيلة قريش المكية . الأمر الذي يدل على عمق التواصل بين مكة وهذه المنطقة من السودان .

ثالثها : كون المترجمين من مكة وهما ملمان باللغة البجاوية يشير إلى معرفة أهل مكة من كثرة ترددهم على شرق السودان بلغة أهله . وأن لغة البجة لم تكن غريبة على مكة . كما أن اللغة العربية الفصيحة لم تكن غريبة على أهل السودان مما يؤكد على وجود قدر

(١) تقي الدين بن أحمد بن علي المقريزي : المواعظ . ج١ ص ٥٥١ .

ثقافي متبادل بين مكة والجزيرة العربية والسودان الشرقي منذ عصور خلت . حسب ما ورد في قصة قراءة جعفر بن أبي طال لسورة مريم على النجاشي ورجالات بلاطة وفهمهم لما سمعوه دون الحاجة إلى مترجم .

ولعل إشارات المؤرخين ومنذ القرن الرابع الهجري إلى مدينة سواكم تشير إلى أبعاد هذا الرباط الوثيق حيث وصفها المسعودي المتوفي (٣٤٦هـ - ٩٦٥م) في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر [(١)] بقوله : (أنها جزيرة ومساحتها أق من ميل في ميل) ، وظلت لسواكن صلة وثيقة بمكة لم تقتصر على الآثار الثقافية والروحية ، وإنما تعدته إلى الوجود الفعلي في سواكن من قبل السلطة السياسية في مكة . حيث ذكر ابن بطوطة في كتابه تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار سواكن وكانت رحلته عام (٧٢٥هـ – ١٣٢٤م) أنه قد اصطحب أحد أبناء أمير مكة من جدة إلى عيذاب ، وجنحت سفينتهم إلى رأس درور التي ومن ثم وصل إلى سواكن ونزل بحي من بني كاهل وهم متخلطون بالبجة عارفون بلسانهم وذكر سلطانهم الشريف زيد بن أبي نمى وقال أن أباه أمير مكة وأخواه أميريها من بعد وذكر أن الشريف زيد صارت إليه سواكن من أخواله البجة وله عسكر من بني كاهل وعرب جهنية والبجة [(٢)] إن هذا الذي ذكره ابن بطوطة أمر له دلالته حيث يدحض أي تفسير آخر للعلاقة

(١) تحقيق محمد محيى الدين / مصر / القاهرة / مطبعة السعادة ١٩٤٨م . ج٢ ص ١٨ .

(٢) أبو عبد الله محمد البواتي الطنحي : تحفة النظار فب غرائب الأمصار وعجائب الأسفار / مصر / القاهرة / المكتبة التجارية ١٩٣٨ م جزءان / ج١ ص ١٨٨ .

بين مكة وسواكن ، فهي علاقة مصاهرة وقرابة . لأنه قال صارت إليه الولاية من أخواله ولم يقل أن ذلك يم بتفويض عن طريق المماليك أو خلاف ذلك . وابن بطوطة في هذا الأمر شاهد عصر .

ولقد اختلط البجة مع العرب والمهاجرين إلى بلادهم من عرب ربيعة ومصر واليمانية من بلى وجهينة ومن قبائل الشام سعد العشيرة وبني كاهل وأبناء عمومتهم دغيم وبعض القريشيين من أشراف مكة. وأصبح كل هؤلاء جزءاً من سكان السودان الشرقي حيث هاجر هؤلاء العرب عبر البحر الأحمر أو جاءوا عن طريق مصر [١].

وارتبطت سواكن بمكة ارتباطاً عضوياً وكذا مكة حيث أصبح البجة أخوال مكة أصحاب السيادة الدينية والزمنية فيها . وأشار ابن بطوطة إلى حكم الأشراف لسواكن كان حكما وراثيا حيث ذكر أنه حين زيارته لها وجد أن أميرها هو زيد بن أبي نمى وأن والده كان أميراً على مكة وأخواه عطيفة ورميثة من بعده عليها وهو الذي سماه في موضع آخر بمنصور[٢] . بالرغم من أن هذا العهد قد سيطر فيه المماليك البحرية على سواحل البحر الأحمر الغربية نتيجة حملتين متتاليتين قام بهما السلطان بيبرس (٦٥٢ – ٦٥٨هـ) (١٢٥٤ – ١٢٦٠م) في سنتي (٦٦١ – ٦٥٤هـ) (١٢٧٣ – ١٢٧٥م) ونتج عنهما الاستيلاء على سواكن . وقد شجعت هذه الحملات المستمرة والقبائل

(١) ضرار صالح ضرار : هجرة القبائل العربية إلى وادي النيل مصر والسودان / المملكة العربية السعودية / الرياض / مكتبة التوبة ٢٠٠١م . ص ٢٧٨ .

(٢) أبو عبد الله محمد البواتي الطنجي : تحفة النظار . ص ١٨٨ .

العربية على الهجرة والاستقرار بالسودان . وهكذا اصطبغت بالصبغة العربية من نظام توريث ابن النبت ، فلم يمر على وفاة بيبرس نصف قرن من الزمان حتى كان النوبيون قد اعتنقوا الإسلام . وانتقل الملك إلى بني الكنز ، فسقطت عنهم الجزية لأنهم عرب مسلمون من ربيعة وهم الكنوز الحاليون [1]. بيد أن ابن بطوطة لم يورد لذلك ذكراً حين كلامه عن سواكن وسلطة الأشراف عليها ، مما يعني استقلالية الأشراف وسواكن يومئذ عن سلطة المماليك البحرية والسلطان الناصر محمد قلاوون (٦٩٣هـ – ١٢٩٣م) مما يعني أن سواكن قد أضحت مستقلة عن المماليك وتابعة لمكة لأن رحلة ابن بطوطة تمت بعد خمسين سنة من حملتي بيبرس على سواكن وبعد حكم السلطان الناصر محمد قلاوون .

إن إرسال أمير مكة لابنه ليكون أميراً على سواكن لا يمكن لمدقق ولمحقق أن يمر عليه دون أن يقف عنده ، لأن حنان الأب يمنعه من أن يجازف وأن يخاطر بفلذة كبده لو لم يكن لديه ثقة ولو لم تكن سواكن موضعاً آمناً .

وقد ضمن لابنه حماية من أخواله ولأنه كما يقال الابن خال وأهل الأم أكثر عطفاً وحناناً . ولقد حفظ الأشراف طريق الحجاج القادمين من أفريقيا بمساعدة أخوالهم من البجة وشكلوا حراسة

(١) أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام / لبنان / بيروت / دار النهضة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٦م . ص ٢٣١- ٢٣٤ .

لقوافل الحجيج القادمة من غرب السودان وأفريقيا والمغرب العربي . ولعل هذا الوجود وهذه القيادة المقتدرة من الأشراف ومساعدة ومعاونة أخوالهم لهم من السودانيين جعلت سواكن تزدهر بعد نكبة عيذاب على يد سلطان مصر المملوكي بيبرس كما قدمنا في الفقرة السابقة وقوة نفوذ الأشراف على مكة .

ولم يقتصر دور الأشراف المكيين على النفوذ السياسي وإنما أضحي لهم وجود مادي ونسب وأصهار وألقاب أصبحت جزءاً من ثقافة وإرث شرق السودان إذ توارثت هذه الأجيال هذا اللقب أباً عن جد وأضحى قدراً من البأس الذي يعمل له ألف حساب . حيث يلاحظ أن داؤد روبيني (David Roudeni) وهو أول رحالة أفريقي يصل سواكن في صورة عربي شريف من مكة . وكان يقصد سنار فقدم من جدة إلى سواكن (٩٢٧هـ – ١٥٢٠م) وصحت السيد عمر أبو كامل من الأرتيقة في قافلة تجارية لسواكن وتحدث عن كرم هؤلاء التجار من أهل سواكن الأشراف!! يقصد الأرتيقة . وذكر أن القافلة التي خرج فيها كانت تضم ثلاثة آلاف جمل مما يدل على ثراء سواكن تحت حكم الأشراف [١].

ويذكر المؤرخون أن من المجموعات العربية التي خالطت البجة وتصاهرت معهم وشكلت قدراً من نسيجهم الاجتماعي الأشراف أشراف مكة . وقد ظهروا لأول مرة بصورة كثيفة في سواكن

(١) محمد صالح ضرار : مصدر سبق ذكره . ص ٥٠ .

(٧٠٦هـ - ١٣٠٥م). ويرجع تاريخ قبيلة الأشراف التي أضحت ذات نفوذ سياسي واجتماعي واقتصادي بسواكن إلى فترة الأمير عبد الله بن يونس التي بدأت سنة (٩١٥هـ - ١٥٠٨م) وأن جدهم محمد بن الحسن العلوي هاجر من مكة إلى سواكن حيث وجد الأرتيقة والحسناب والعلويين وأقام بينهم ثم صاهر الأرتيقة الذين كانوا يعتبرون من الأشراف الذين لا يعطون بناتهم لأي أحد دون التأكد من صحة نسبه .

لذا نلاحظ أن محمد بن الحسن ذهب إلى مكة ليحضر سلسلة نسبه الشريف من خازن أنساب الأشراف بالحرم المكي وذلك في عام (٩٤٢هـ - ١٥٣٥م) ولقد خرج من نسل محمد بن الحسن العلوي وبنت استايف الأرتيقي [1]قبيلة الأشراف والتي تسكن حي أشراف سواكن وطوكر[2] . من خلال ما تقدم يتضح بأن الأشراف المقصودين في هذه الفقرة وفي كتاب محمد صالح ضرار فرعاً خاصاً وأن لا ف'ن ظهور الأشراف ومصاهرتهم ترجع إلى تاريخ سابق حسب ما قدمنا في صفحات سابقة وحسب ما قرره ابن بطوطة من أيلولة حكم سواكن لأشراف مكة قبل ذلك التاريخ بكثير .

---

(١) الأرتيقة : ينتسبون إلى محمد بن الحنيفة وفقاً لمقولات شيوجهم ، وقد صاهر الأرتيقة أشراف مكة كما أشار إلى ذلك بن بطوطة (٧٢٥هـ) . وقد صاهروا أحد أشراف سواكن السيد محمد الحسيني (٨٥٥هـ) . والأرتيقة يدققون كثيراً في أنساب من يصاهرونهم حتي أنهم لم يوافقوا علي مصاهرة السيد محمد الحسني إلا بعد أن ثبت نسبه الشريف في محكمة مكة المكرمة الشرعية وسجله بمحكمة سواكن . محمد صالح ضرار : مصدر سبق ذكره . ص ٢١١ .

(٢) محمد صالح ضرار : مصدر سبق ذكره . ص ٢٣٠ .

أن هذا الوجود بهذه الكيفية المتميزة يدل علة عمق العلاقة ومتانة الرباط العرقي ويؤكد على عظمة درجة التغلغل الاجتماعي وكثافته . كما يشير إلى دور مكة الإيجابي في نيتة النسيج العرقي السوداني والدور الثقافي والروحي والاقتصادي المتبادل بين كل من مكة والسودان منذ حقب تاريخية موغلة في القدم .

العلاقات المكية الفوراوية (٨٤٣ – ١٣٣٥هـ) (١٤٥٠ – ١٩١٦م)

سلطنة الفور تعتبر واحدة من السلطنات الإسلامية التي انتطمت الجانب الغربي من سودان وادي النيل الحالي وشكلت قدرة المسلمين على تجاوز كل هزائمهم وجراحاتهم التي لحقت بهم في الأندلس . حيث سقط آخر معاقل المسلمين في غرناطة سنة (٨٩٤هـ – ١٤٩٢م) فكانت هذه السلطنة تعبيراً قوياً على قدرة المسلمين على العطاء والإنجاز والإبداع ، وأن محاصرة الفكرة ومحاولة الاجتثاث لا تزيدهم إلا قوة وإصراراً . ولقد كانت دار فور تعويضاً عن ما قفده المسلمون في الأندلس ةتعبيراً آخر عن المصاهرة والتداخل العرقي بين العنصرين العربي والزنجي وتأكيداً على هيمنة العنصر الوافد ذو الثقافة المتفوقة . واستفاد هذا العنصر الوافد من التقاليد الزنجية القائمة على وراثة ابن البنت ، فكان عنصر الكيرا البيت المالك في دار فور لمدة تزيد عن خمسمائة سنة من الزمان أي مدة خمسة قرون وهي مدة بعمر الزمن ليست بالقصيرة . ولقد أنشأ هذه السلطنة سليمان صولون (العربي) (٨٥٤هـ – ١٤٥٠م) ودار فور تعني بلاد

الفور، والفور هم اسم القبيلة التي تعيش في هذا الإقليم [(١)]. ويطلق هذا الاسم عليهم تمييزاً عن الوافدين عليهم . هذا باستثناء أسرة الكيرا التي اختلطت بدماء عربية ، والفور هم خليط من السلالات الحامية والزنجية والسامية .

ويعتقد أن الداجو أو التاجو المكون الأول للفور وهم من النوبة قد هاجروا من مناطق النوبة من شمال السودان . والبعض الآخر يعتقد أنهم هاجروا من شمال أفريقيا والمكون الثاني حسب التدرج التاريخي هم الطنجور وهم يدعون نسبه عربية وأنهم قدموا من تونس . ويذكر ناكتيجال حين مروره بكانم حيث يوجد عدد كبير من الطنجور وجد منطقة تسمى تونس . وهذه دلالة قوية لدى الباحث على أنهم من تونس إذ أن تلك عادة لدى كل القبائل المهاجرة إذ لا تنسى اسم مناطقها القديمة . إذ تطلق اسم مناطقها القديمة على المناطق التي هاجرت إليها حديثاً ارتباطاً بالجذور . والمكون الثالث هم الكنجارا ومن هؤلاء خرجت سلالة السلاطين المسماة الكيرا . وهم عنصر عري ينتسبون إلى أحمد المعقور ومن أحفاده دالي مؤسس عائلة الكيرا . وتنتشر هذه العائلة في كل من دار فور وكردفان وقد خرج من صلب الكيرا مؤسس السلطنة الإسلامية العربية سليمان صولون (أي العربي بلغة الفور) [(٢)]

---

(١) Rex . Sean O, Fahey : The Growth And Development Of The Kira Ssultanate (without date) Typescrip England / Durham . p ١٢-١٦ .

(٢) سيد أحمد العقيد : سياسة الفور الخارجية (١٨٩٨ – ١٩١٦م) المملكة العربية السعودية / الرياض/ =

بعـد قيـام هـذه السلطنة ذات الأصـول العربيـة وذات التوجـه الإسـلامي (٨٥٤هـ - ١٤٥٠م) كـان لا بـد مـن أن تتجـه بناظريهـا وبأشـواقها إلى مكـة مهـبط الـوحي وقبلـة الموحـدين . وقـد أضـحت صـلة سـلطنة الفـو بمكـة صـلة لا تعـدو عـن كونهـا طبيعيـة بحـسبان أن كـل الممالـك الإسـلامية الـتي انتظمـت سـودان وادي النيـل أو غـرب أفريقيـا كـان مبتغاهـا الاتجـاه إلى مكـة بأشـواقها وبقيادتهـا وبمفكريهـا . وذلـك بـسبب الحـج الـذي ظـل وسـيظل يحتـل مكانـاً خاصـاً في قلـوب سكان شمال وغرب أفريقيا وبلاد السودان بمعناها الواسع [1].

كمـا أن مـرور طريـق الحجـاج مـن غـرب أفريقيـا عـن طريـق دار فـور وعـبر طريـق البحـر الأحمـر ل سـيما بعـد قيـام الممالـك الإسـلامية في الـسودان النيلـي بالإضافـة إلى طريـق قـد ربـط دار فـور بحركـة الحجيج [2].

وممـا لا شـك فيـه أن الحـج كـان يمثـل فائـدة هامـة لهـذه الممالـك الإسـلامية الـسودانية سـواء أكانـت في تقلـي أو في سـنار علـى النيـل الأزرق أو في دار فـور الحاليـة أو وادي شمـال تـشاد الحاليـة أو بـاجرمى . ونلاحـظ أنـه كـثيراً مـا اسـتقدم وكـلاء الـسلاطين الـسودانيون العلمـاء

=

جامعة الملك سعود / كلية الآداب / قسم التاريخ/ رسالة ماجستير ١٩٨٤م (غير منشورة). ص ١٢-١٧ .

(١) Umer Alnaqer : The Pilgrimage Trdition in West Africa , Sudan / Khartoum . university press (١٩٧٢) p ٤□٥ .

(٢) Op . Cit p ٤□٣٤ . Umer Alnager .

من الحجاز بتكليف من هؤلاء السلاطين . وفي المقابل فقد التزم هؤلاء السلاطين الفور على وجه الخصوص التزاماً فعلياً وأدبياً بأداء خدمات أو جبوها علي أنفسهم إزاء مكة والمدينة .

ولا يخفي أن سلطنة دار فور منذ قيامها سنة (٨٥٤هـ – ١٤٥٠م) كانت دولة مستقلة عن كل دول الأرض ولا تدفع جزية ولا ضريبة لأحد ما عدا الحرمين الشريقين . فإنها كانت تخدمها طوعاً واختياراً بمحمل يحمل مواد تموينية وصرة وهي عبارة عن نقد كل سنة . فكان موكب المحمل يأتي إلى مصر ومعه الريش والسن والصمغ وغيرها من خيرات البلاد فيبيعها ويتم بثمنها نقود الصرة . ثم يستطرد الحج إلى الحرمين مع الركب المصري [(١)].

هذه الإشارة لها دلالتها الموضوعية والتاريخية حيث تؤكد على عمق الروابط بين دار فور ومكة . إذ لا يقتصر الأمر على أداء فريضة الحج وآثاره الروحية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وإنما تعداه إلى التزام أدبي سنوي إزاء السلطة الزمنية الموجودة بمكة وخدمات الحجاج وفقراء مكة بغية تنمية إنسان مكة والارتقاء به عن طريق توزيع مبالغ أو ميزانية محددة كل سنة على فقراء مكة ودعم ميزانية السلطة الحاكمة سنويا .

ولقد كان المحمل هو التزام أدبي طوعي إزاء مكة من قبل سلاطين الفور . ويحتوي على شقين مادي وعيني غايته الأساسية تنمية

(١). Op . Cit . p . ٣٤-٤

الإنسان المكي ورفع كفاءته وقدراته المادية وتثبيت النظام الحاكم تقديراً لمكانة الأشراف واحترام من أولاه الله سبحانه وتعالى أمر الحرم الشريف . وكان السلاطين يعتبرون إن ذلك يعتبر قربه لله تعالى وواجباً من الواجبات الشرعية التي أوجبوها على أنفسهم . وجزء من هذا المحمل كان ينفق على الحجيج وهو قدر من السقاية وإطعام الطعام وتحقيق لمبدأ التكافل ، يعكس هذا القدر من المسئولية إزاء مكة ونظامها السياسي وحجاج بيت الله الحرام ومواطينها الألقاب التي تم إضفاؤها على السلطان عبد الرحمن الرشيد في بداية القرن الثالث عشر الهجري نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن التاسع عشر ، حيث كان من ضمن الألقاب التي أضيفت إليه وتعامل بها في مكاتباته لقب خادم الحرمين الشريفين (١).

هذا بالإضافة إلى رسالتين بعث بهما إبراهيم قرض سنة (١٢٩٢ – ١٢٩٣هـ) (١٨٧٣ – ١٨٧٤م) آخر سلاطين الفور في بداية الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، وهما عبارة عن رسالتين بعث بهما إلى عبد الله شريف مكة ورد في أولاها (من أمير الفور السلطان إبراهيم إلى حضرة الشريف عبد الله ... (واصل إليكم الحاج إدريس وصحبته ثلاثة آلاف ريال يصل حضرتكم وما بقي يقوم بتفريقه) .

مما يلاحظ في هذه الوثيقة أنها حددت المبلغ المرسل يومئذ ، بمقادير تلك الفترة إذ تعتبر آلاف ريال مبلغاً كبيراً يشكل دعماً لولاية

---

(١) محمد عمر التونسي : تشحيذ الأذهان بسيرة أهل السودان / تحقيق محمود عساكر ومصطفي محمد سعد / مصر / القاهرة / د.ن / ط ١٩٦٥م ص ٤٠٦ .

مكة . ويشير إلى أن هناك مبلغاً آخر ظلت السلطنة ترسله ليصرف على شؤون خدام بيت الله الحرام وعلى الحجيج وعلى فقراء من أهل مكة . مما يعني مشاركة فاعلة في تنمية المواطن والإنسان المكي بغية تخفيف أعباء الحياة عنهم ، كما يعني تحقيقاً لمبدأ التكافل والتعاون على البر و التقوى .

ولم يقتصر أمر سلطنة دار فور في صلتها بمكة على دعم الجانب الاقتصادي ومساندة النظام السياسي والسلطنة الزمنية أو محاولة رفع كفاءة الأداء الاقتصادي وإنما تشكل مورداً لخدام بيت الله الحرام حيث أشارت إلى ذلك الوثيقة التالية من ذات السلطان والتي ورد بها ما نصه (قد أرسلنا الحاج إدريس صحبة المذكور ستة أغوات متوج إلى الحرمين معه صرة لمكة واغوان لخدمة البيت [١]).

مما مضي يتضح أن دار فور كانت مصدراً لبعض الأغوات الموجودين بالحرم المكي وكانت سلطنة دار فور الإسلامية تقوم بواجب أدبي إزاء السلطة الزمنية القائمة تقديراً لمكانة البيت الحرام والأسرة الحاكمة من الأشراف . كما كانت تقوم بواجب آخر إزاء رواد البيت الحرام ، ويعتبر ذلك قدراً من الالتزام الذاتي الذي يقوم به السلاطين الفور طوعاً واختياراً ويؤكد على صدق رابطة العقيدة القوية التي تربطهم بمكة وبمواطنيها وبالبيت الحرام .

وفي ذلك الوقت فقد شاركت دار فور بهذا الجهد المادي في رفع مستوى الفر الاقتصادي في كل من مكة والمدينة وذلك عن طريق

---

(١) دار الوثائق المصرية (القلعة) ١٠٥/ ٣/ ١ .

إرسال صرة سنوية إلى كل من مكة والمدينة لتوزيعها على الفقراء في هاتين العاصمتين الإسلاميتين ، وبذا تكون سلطنة الفور الإسلامية عبر خمسمائة سنة من الزمان قد حققت ما أمكنها من التكافل الاجتماعي والاهتمام بأمر المسلمين[١]. وحافظت على هذه العلاقة المتينة مع مكة وظلت مكة ترفدها بنفحاتها الروحية والثقافية .

حيث نلاحظ أنه لما ظهر عدل السلطان عبد الرحمن الرشيد وحبه للعلماء وأهل الفضل والأشراف وفد عليه الأشراف والعلماء من جهات عديدة . كانت مكة سباقة في هذا مجال ، حيث وفد عليه من أشراف مكة الشريف مساعد ويقال أنه من أولاد الشريف سرور[٢]. فأقام بدارفور فترة من الزمن .

وحتى الثلث الأول القرن الرابع عشر الهجري والربع الأول من القرن العشرين كانت السلطنة على صلة دائمة ببلاد الحرمين من حيث إرسال محمل سنوي دعماً للسلطنة الزمنية القائمة ومساعدة منها في دعم أشراف مكة والمشاركة في التنمية الاجتماعية بتفريق أموال سنوية على الفقراء. وبالرغم من انقطاع سلسلة السلاطين الفور بعد سنة (١٢٩٣ – ١٨٧٤م) نتيجة سقوط هذه السلطة ، فما أن استعاد آخر سلاطين الفور السلطة بعد ثمانية وعشرين سنة حتى أرسي قواعد هذه الصلة الوثيقة باعتبارها واجباً سنه أجداده في إرسال هذا المحمل السنوي الذي يعتبر مظهراً من مظاهر السلطنة وتقليداً من تقاليدها

(١) سيد أحمد العقيد : سياسة الفور . ص ٢٤٦- ٢٤٧ .

(٢) محمد عمر التونسي : مصدر سبق ذكره ص ١١٦- ١١٧ .

التليدة وواحداً من مآثرها ومكتسباتها التي لا ينبغي إهمالها أو التفريط فيها .

إن السلطان على دينار حين استعاد سلطته سنة (١٣١٦هـ – ١٨٩٨م) كان سلطانه محاطاً بأخطار عدة وبوجود أجنبي قضى على أقوى وأعتى الثورات الإسلامية في القرن التاسع عشر في السودان بل في العالم الإسلامي كله ألا وهي الثورة المهدية (١٣٠٢هـ – ١٣١٦هـ) (١٨٨٤ – ١٨٩٨م)، ولكن بالرغم من ذلك ومن محدودية وقعة سلطانه عزم على تجديد العهد مع مكة وأهلها والقيام بما كان يقوم به أجداده وأسلافه . يتجلى ذلك في خطاب بعث به إلى السردار في ٩ رمضان (١٣١٨هـ – نوفمبر ١٩٠٠م) وقد ورد فيه ما نصه : (بغاية الوفاء إذ كانت المدة الماضية السابقة زمن المتقدمين آباءنا سلاطين دار فور لهم عوايد وشروط وحدود معلومة وهدايا تقدم لوالي مصره ومحمل يرسل لبيت الله الحرام ويؤذن لنا بإرسال هدية بيت الله الحرام في كل عام [1]).

إن الإشارة إلى أن الآباء درجوا على تنفيذ هذه الشروط وهذه الالتزامات الأربعة التي غدت من أهم مظاهر السلطة وحداً من حدود الالتزام الطوعي يؤكد على أن المسألة إرسال المحمل السنوي إلى مكة وكذا صرة إلى الحرمين كانت تشكل تقليداً هاماً ، وتؤكد على عمق العلاقة بين مكة وهذه السلطنة الإسلامية في أقصي غرب

(١) S . N . A / Intell ٧/١/٢ .

السودان وادي النيل الحالي . ولتأكيد عمق هذه العلاقة الوطيدة بين مكة وسلطنة دار فور الإسلامية فلقد أرسل السلطان على دينار خطاباً إلى شريف مكة يعبر فيه عن مدى شوقه لزيارة الحرم المكي وبعث رفقة ذلك الخطاب بألف ريال مجيدي يوزع على الفقراء وخدام بيت الله الحرام [١].

وظل السلطان على دينار (١٣١٦ – ١٣٣٥هـ) (١٨٩٨ – ١٩١٦م) منذ أن تسلم العرش يرسل المحمل سنوياً إلى مكة والمدينة وظل في كل سنة يطلب من الحكومة الثنائية (الإنجليزية والمصرية) في الخرطوم تسهيل مهمته حيث يقول في وثيقة (١٣٢١هـ) (١٩٠٣م) (إني قد وجهت الأفكار بإرسال الوقف للحرمين الشريفين وقد تجهز الآن قادماً لأرض الحجاز [٢].

ويلاحظ أن المحمل يعتبره سلاطين دار فور وقفاً كما ورد في هذه الوثيقة وللوقف أحكامه في الشرع ، حيث يغدوا الإيفاء به واجباً من قبل السلاطين . والوقف هو أمر من الإنسان على نفسه بإخراج جزء من ممتلكاته للصرف على وجه من وجوه الخير ويصبح نفاذه بعدئذ لازماً من الناحية الشرعية . فالوقف دافعه ذاتي وليس إلزاماً خارجياً .

ولم يقتصر دور المحمل على الصرة والأوقاف التي تسدى إلى

(١) S . N . A / Intell ٧/١/٢

(٢) على دينار إلى سلاطين في ٦ رجب ١٣٢١هـ (١٩٠٣/١/٦م) S . N . A / Intell ٧/١/٢

الحرمين بقدر ما كان يقوم بنشاط تجاري وتبادل اقتصادي . وظل المحمل يشكل سفارة سودانية كاملة تقوم بشتى التخصصات من مسئول عن المحمل ومبعوث تجاري وبعثة توعية وإرشاد ، وكان يسمى المحمل بالمحمل الشريف ، لا شك أن هذه التسمية إلى أبعاد القداسة للمقصود حتى سمي به القاصدون إلى مكة .

ولعل الخطاب التالي يعكس أهمية هذا المحمل والأدوار المنوطة به في مجال العلاقة السودانية المكية حيث يطلب السلطات على دينار من الحاكم العام (السردار) إذناً باستيراد ما يمكن الحصول عليه من مكة عن طريق التبادل التجاري وتبادل المنافع علاوة على أدائه لدور الوفاء بالتزام أدبي وأخلاقي تجاه السلطة المكية والفقراء وخدام البيت .

حيث يقول في خطاب له في سنة (١٣٢٤هـ) بتاريخ (١٩٠٦/٩/١٨م) إلى المفتش العام النمساوي سلاطين باشا : (أعطوا مرسولنا محمد الشيخ سيماوي أمراً كافيا تأذنوا له فيه بمشترى الأشياء التي تليق بنا وتكون من آلات السلطنة ويجدها هناك يشتريها ويحضرها إلينا ولا يعترض فيها أحد بكافة جهات الحكومة [١]).

ومما يلاحظ أن المحمل الفوراوي كان ضخما من حيث العدة والعدد والعتاد . وقد ورد من الوثائق ما يؤكد على أن الحالة الأمنية التي كانت سائدة ببلاد الحرمين خلال هذه الفترة إذ كانت آمنة .

---

(١) S . N . A / Intell ٧/١/٨

حيث يشير السلطان في ذات الخطاب السابق إلى أن رجال المحمل قد تعرضوا في السنوات الماضية للنهب والاعتداء . لذا فقد زود رجاله ببعض الأسلحة لحماية أنفسهم وضمان وصول المحمل والصرة إلى مكة بسلام .

وفي خطاب لاحق للسلطان يشير إلى أن عددية المحمل الفوراوي السوداني كان يزيد على المائتين والخمسين شخصاً وأنه يتضمن عدداً من المشايخ والفقهاء ورجال السلطة . إن هذا المحمل لم يقتصر أمره على التبادل التجاري واستيراد البضائع من مكة وإنما تعداها إلى استيراد الأسلحة النارية [1]. الأمر الذي يؤكد على تبادل المنافع وتكامل المصالح بين مكة ودار فور في كافة المجالات.

كما تجاوز الأمر حدود العلاقة الاقتصادية والتكامل الاجتماعي والعلاقة الثقافية والروحية إلى تنسيق المواقف السياسية ، حيث كان السلطان يرى بعين ثاقبة أن الوقوف بجانب تركيا فيه حماية لبيضة الإسلام .

وقدر أن ذلك أفضل من الخروج على عباءة الخلافة الإسلامية . ولكن فيما يبدو أن اللعبة الدولية من هذه المحاولات وأن شريف مكة بنفسه وكثيراً من القيادات العربية يومئذ كانت دون هذا المستوى من الفهم المتفوق زماناً ومكاناً .

(١) سيد أحمد العقيد : سياسة الفور . ص ٢٥٢- ٢٥٤ .

وبالرغم من العلاقة المتميزة بين دار فور ومكة فلقد رد عليه الشريف الحسين بن على رداً قاسياً ولم يضع أي اعتبار لطبيعة العلاقة المتميزة ذات الأبعاد التاريخية والموضوعية بين دار فور وأسلافه . وقد خلت العبارات المكية من قدر من الدبلوماسية والحنكة السياسية واللطف في التعامل، فقد رد عليه بعبارات محدودات دون تفصيل ورد فيها : (جناب صاحب دار فور الأعز سلمه الله وصل كتابك ولو لا حشمة الشيخ محمد سيماوي بم نجب عليه ولما ذكر تحرر)[1]. نستطيع أن ندرك السبب في هذا الرد الجاف إذا علمنا أن الشريف حسين بن على الذي تولى إمارة مكة سنة (١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م) كان موجوداً في استانبول ومتأثراً إلى أبعد الحدود بفكر الاتحاديين في تركيا الذين كانوا يناوئون السلطان العثماني عبد الحميد .

من خلال هذه الخلفية التاريخية نستطيع أن ندرك علاقة الأشراف بالسلطان على دينار . هذا بالإضافة إلى دور بريطانيا البارز في القضاء على الخلافة الإسلامية في تركيا ومن يسير في فلكها . كما لا يخفي طموح الشريف حسين بن على الذي أعلن نفسه ملكاً ليس على الحجاز فحسب وإنما على جميع البلاد العربية في سنة (١٣٣٥هـ - ١٩١٦م) . وتقدير الباحث قد تم ذلك كله بإيعاز من بريطانيا لضرب الخلافة الإسلامية في مقتل .

(١) الحسين بن علي إلى السلطان علي دينار بتاريخ ١٩٠٩/١٢/٧م الموافق ٢٥ ذو الحجة ١٣٢٧هـ . S .N .A. / Intell ٢/٣/١٢.

ولقد كانت هذه المحاولة الفوراوية هي عبارة عن مبادرات سوادنية كشأن كثير من المبادرات السودانية الجريئة والمستقلة والتي غايتها جمع الصف وتوحيد الكلمة وحث الشريف بالتزام الجماعة ومراجعة علاقاته مع السلطان العثماني باعتباره العاهل الأكبر للمسلمين يومئذ .

ولكن فيما يبدو أن شريف كان قد أحرق مراكبه ورمى بكلكبله مع الأطماع الخارجية دون وعي ودون قراءة ذكية لمفردات التاريخ وأبعاد اللعبة الدولية ، ونتيجة لهذا الموقف غير الدبيلوماسي من شريف مكة إزاء على دينار والذي لم يضع أي اعتبار لعمق العلاقة وخصوصيتها فقد توقف المحمل الفوراوية لمدة عامين ومما زاد الطين بلة الالتفاف الاستعماري الفرنسي حول السلطنة الفوراوية من ناحية الغرب فنشأت حرب بين الفرنسيين وسلطنة دار فور .

وما يمكن فإن توافد عدد على هذا القدر من دار فور إلى مكة سنوياً خلال خمسة قرون من الزمان والرفاء بهذا الالتزام الأدبي كان له أثر بالغ على المنطقتين (السودان ومكة) من الناحية الروحية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسلوكية والعرقية . وكان لسلطنة دار فور أوقافها في جدة ومكة والمدينة لإقامة هذا الوفد ، مما يشير إلى متانة هذه العلاقة المتميزة ، حتى يقال أن آبار على الواقعة على طريق (مكة والمدينة) هي نسبة للسلطان على دينار[١].

(١) سيد أحمد العقيد : مرجع سبق ذكره ص ٢٥٤ .

الأمر الذي يضيف بعداً جديداً لهذه العلاقة .

ويلاحظ المرء أن ما وحدث بين السلطان على دينار وشريف مكة الشريف الحسين بن على قد تمت ملافاته من قبل الوسطاء بين الطرفين . حيث نجد أنه في سنة (١٣٣٣هـ – ١٩١٤م) قد تحسنت العلاقات الفوراوية المكية ، إذ تشير ذلك وتؤكد عليه الهدايا المتبادلة بين الطرفين [1].

ولقد كان للسلطان على دينار صلة قوية بالأغوات وكان نفوذه قوياً بينهم . ويتضح ذلك من دوره البارز الذي لعبه في تهدئتهم من ثورتهم على السلطات الزمنية . حيث قام في (١٣٣٣هـ – ١٩١٤م) بإرسال خمسة خطابات إلى مستلم الحرمين الشريفين والأغوات يطلب فيها من الأغوات الانصياع التام والإخلاص في خدمة الحرمين الشريفين [2].

ومما ينبغي ملاحظته أن الصلة بين الأغوات في مكة وسلاطين الفور هي صلة قديمة ومتوارثة حيث سبق وأن أكد السلطان إبراهيم قرض آخر سلاطين الفور في الفترة الأولى (١٢٩٣ – ١٨٧٤م) قبل السلطان دينار هذه الحقيقة وهو الذي قام بإرسال مجموعة من الأغوات لخدمة كل من الحرم المكي والمدني [3].

---

(١) السلطان علي دينار إلى مدير المخابرات بالخرطزم في ١٩١٤/١١/٢٥م . S . N . A . Intell ٢/٣/١٣

(٢) السلطان علي دينار إلى الشيخ عبيد الحمدي بتاريخ ١٩١٤/١١/٢٥م الموافق ١١ محرم ١٣٣٣هـ . S . N . A . Intell ٧/١/١٣ .

(٣) دار الوثائق المصرية بالقلعة ٣/١ .

وبالتالي فإن أياً من سلاطين الفور كان يشعر بوجوب الإنفاق على هؤلاء الأغوات بل يعتبر ذلك فرضاً دينياً في درجة النذر الواجب الوفاء به .

ولقد كان السلطان على دينار من جانبه يشعر بالحرج وعدم الارتياح إذا لم يتمكن من إرسال المحمل سنوياً ، يبدو ذلك واضحاً في الاعتذار الذي بعث به السلطان سنة ١٣٣٣هـ إلى الشيخ عبيد الحمدي من أولاد الشيخ يخيت القائم بأمر المسجد النبوي مشيراً في خطابة إلى سوء الحالة الاقتصادية في بلاده وشحها ويبدو بالغ اهتمامه وقلقه لما يدور في بلاد الحرمين من فتن ويعد بأنه سيرسل (ما يجبر خاطركم ويشرح صدوركم عند صدور محملنا) [١].

إن هذا الخطاب تبدوا أهميته الموضوعية في أنه يشير إلى عمق العلاقة ومدى تأثرها بمجريات الأحداث الإقليمية والدولية يومئذ . إذ يعبر السلطان في خطابه هذا عن عدم رضاه لما يجري في الساحة العربية الإسلامية لا سيما التوجه القاضي بالخروج على الدولة العثمانية . إذ كان يعتبرها رمزاً إسلامياً لا بد من وجوده بالرغم من المآخذ التي تؤخذ عليها . إذ يميل إلى نظرية الإصلاح من الداخل للأمة المسلمة في وجه الخصوص الأجانب . ولعل ذلك مما يؤكد بعد نظره وعمق تفكيره حيث لم يكن على وفاق مع السياسة الأجنبية والاحتلال الأجنبي لأجزاء من السودان يومئذ تحت أي مسمى .

---

(١) المصدر السابق .

ولقد حاول السلطان أن يتخذ من المحمل الشريف وسيلة ضغط على السلطة الزمنية في مكة والمدينة وذلك بالكتابة إلى الأغوات وشريف مكة ، بغية إثارتهم وتوحيد جهودهم وجذبهم إلى الصف التركي . بيد أن هذه المحاولة لم تخف على حكومة الخرطوم الإنجليزية شكلاً ومعنى المسماة الثنائية زوراً وبهتاناً وذراً للرماد في العيون والتي بدأت تشعر بالخطر الماثل أمامها المتجسد في خطورة هذا التنسيق السوداني الوطني المكي إذا ما تم له النجاح . فبدأت تقوم بإجراءات تفتيش دقيقة في غدوه ورواحه وصدرت بهذا الصدد تعليمات صارمة من الحاكم العام نائب مدير المخابرات إلى مفتش سواكن في ١٩١٥/٥/٢٦م الموافق ١٩ شعبان ١٣٣٣هـ [١].

وفي أثناء هذا التدقيق تم العثور على خطابات واردة من علي دينار إلى محمد سرور وشريف مكة يحثهما فيهما على الجهاد في سبيل الله بالدم والمال ويدعوهما إلى تأييد السلطات التركي[٢]. الأمر الذي يتعارض والسياسة البريطانية إزاء العالم الإسلامي والسلطنة العثمانية على وجه التحديد . إذ كانت تهدف سياسة بريطانيا الخارجية إلى ضرب القوى الإسلامية ببعضها ، وتسعى إلى إثارة النعرات القومية والإقليمية والعرقية للخروج على الدولة العثمانية وضربها في مقتل . وبالتالي فإن أي محاولة للملمة الشمل تصب في خانة إبطال المشروع البريطاني الاستعماري في المنطقة .

---

(١) S . N . A . / Intell ٧/١/١٣.

(٢) مفتش سواكن إلى نائب مدير المخابرات في ١٩١٥/٥/٣م . S . N . A . / Intell ٧/١/١٣

ونتيجة لهذه السياسة التعسفية من قبل الإدارة الإنجليزية بالسودان بدأت سلطنة الفور إجراء الاتصالات مع القوى الإسلامية المتواجدة في مكة باعتبار أن الحج مؤتمر جامع ولا يشير اللقاء فيه إلى شبهة . وظل الاتصال يتم عبر الرسائل الشفاهية . ولقد أشار السلطان علي دينار إلى هذه الإستراتيجية في خطاب بعث به إلى السلطان العثماني محمد رشاد بتاريخ ١٩١٦/٤/١م جاء فيه : (لقد اعتدنا إرسال المحمل السنوي إلى الحرمين الشريفين هدية لخدمة الحرمين الشريفين ولقد درجنا على النصح والتعليمات لرأس المحمل أن يقوم بالاتصال بكم في الحج ولكن الإنجليز درجوا على تعين جواسيس يراقبون رأس المحمل ذهاباً وإياباً ومنذ ١٣١٨هـ اعتدنا على إرسال المحمل سنوياً أو كل سنتين وفي بعض الأحيان من غير انقطاع) (١).

إذن كانت مكة نقطة التقاء وتفاوض وتبادل وجهات نظر بين القوى الوطنية السودانية وبين القيادات الإسلامية في العالم الإسلامي . وأن المحمل السوداني كان يقوم بدور سفارة . ولقد كان للمحمل الدار فوري إلى مكة إلى نهاية القرن التاسع العشرين أدوار يقوم بها :

أولهما : تفريق الأموال وتوزيعها على الفقراء في العاصمتين المقدستين .

ثانيها : الإنفاق على خدام المسجدين الشريفين وذلك بإرسال مبالغ محددة ومعينة إلى مستلم الحرمين .

---

(١) . ١٢٨/٥ / . D . S . A

ثالثها : إيصال صرة الحرمين الشريفين مكة والمدينة لتصريف أمورهما وإدارة العاصمتين .

رابعها : إجراء اتصالات وتبادل وجهات النظر حول الأوضاع العامة على الساحة الإسلامية والدولية مع كل من شريفي مكة والمدينة .

خامسها : الالتقاء برجالات البلاط العثماني وإن أمكن الخليفة العثماني لتنسيق المواقف وتبادل وجهات النظر حول مستقبل المنطقة الإسلامية والعربية وتدارس الأخطار المحدقة بها .

ومن جانب آخر فإن السلطان علي دينار كان يشعر بأنه مسئول عن النصح والقيام بدور فاعل في الحجاز للتأثير على القوي الصانعة للقرار في مكة والمدينة . وكان هذا الاتجاه يشكل سباقاً بينه وبين حكومة الإنجليز في الخرطوم حيث كانت وظيفة الحاكم البريطاني في الخرطوم أن يوظف القيادة الوطنية والروحية ذات الصلة بشريف مكة لتحريضه وتحفيزه على الثورة والتمرد والخروج على السلطان العثماني . وكان يقوم بهذا الدور على الميرغني الطائفة الختمية يومئذ لصلته بشريف مكة.

وكانت بريطانيا تدرك مكانه مكة الروحية في نفوس المسلمين ، وأن خروج قيادتها على السلطان العثماني يشكل مدخلاً جيداً لإقناع بقيه المسلمين للخروج عليه . ويبدو من جانب آخر أن هذه الأدوار لم تكن لتخف على السلطان على دينار مما يعني تفوقه العقلي

وسداد تقديراته السياسية وسبقه لزمانه .

وبالتالي يكون واحداً من القلائل الذين أدركوا أبعاد وخطورة اللعبة الاستعمارية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والعقدين الأوليين من القرن العشرين ، والذي بموجبها صياغة أقدار المنطقة نتيجة غفلة وجهل وعمالة من بيدهم مقاليد الأمور من ساسة مفكرين وقادة ميدان .

يتضح ذلك من خلال قراءة خطاب صادر من الحاكم العام إلى كالى في وزارة الخارجية البريطانية يؤكد له أنه قد نجح في إقناع شريف مكة وكسبه لصالح التحالف ضد الدولة العثمانية (١) واختزاله لصالح المشروع الاستعماري في المنطقة . وقد أشار الحاكم العام في ذات الخطاب إلى خطورة دور السلطان على دينار ضد المشروع البريطاني(٢) ومدى أثره على شريف مكة ، ولكن بالرغم من ذلك أكد الحاكم العام البريطاني أنه قد نجح في استمالة شريف مكة وأن السلطان على دينار ظل يشكل عقبة كأداء وسيتم التخلص منه ونفيه إلى مالطة أو عدن بعد القضاء على سلطته (٣)

وختاماً يمكن القول أن سلاطين الفور إضافة إلى هذا الالتزام الطوعي والاختباري إزاء مكة وإيجابية العلاقة ، فلقد شجع سلاطين

(١) الحاكم العالم إلى كالي بتاريخ ١٩١٦/٦/١٣م .

(٢) أنظر محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية والبريطانية مصر / القاهرة / د.ن /١٩٥٢م – الجزء الأول .

(٣) سيد أحمد العقيد / سياسة الفور . ص ٢٦١- ٢٦٣ . ١٢٨/٦/. D . S . A

الفور قدوم الفقهاء ورجال الطرق الصوفية من مكة والحجاز عموماً للقدوم إلى بلادهم ونشر العقيدة وتعميق مفاهيمها على أسس علمية سليمة بين مواطنيهم[١]. مما كان له أكبر الأثر في صياغة الوجدان الفوراوي وتشكيل الشخصية السودانية الحديثة .

العلاقات المكية الفونجية ١٥٠٥ – ١٨٢١م

أن صلة دولة الفونج بمكة كانت صلة قوية تعددت شعابها من سياسية إلى ثقافية إلى روحية إلى اجتماعية واقتصادية . ويحسن بنا في البدء أن تشير ولو بإيجاز إلى أصل الفونج . هناك ثلاث نظريات حول أصل الفونج إذ تميل معظم الدراسات السودانية إلى أن أصل الفونج هو أصل عربي . لعل أول من ابتداع نظرية عدم عروبة الفونج هو الرحالة الإنجليز بروس الذي زار سلطنة الفونج ١٧٧١م حيث أدعي أن أصلهم من الشلك (أي أصل زنجي) اعتماداً على استقراء الشكل واللون وهو دليل ضعيف في تقديري .

ومن العجيب أن الغربيين لديهم محاولات عدة من هذا النوع آخرها محاولة قامت بها بعثة ألمانية لإثبات أن أهل دار فور ليسوا بعرب . ولما أثبتت الدراسات الجينية بعد عشرون سنة من البحث المتواصل خلاف ذلك أخفوا نتائج هذه الأبحاث[٢]. وتؤكد مصادر الدراسات

(١) جولييت عدلي غابيوس / مصدر سبق ذكرة ص ١٣٦ .

(٢) ذكر ذلك البروفيسور : إبراهيم أحمد عمر أستاذ الفلسفة بجامهة الخرطوم ووزير التعليم العالي الأسبق نقلا عن البروفيسور المرحوم : عبد الله الطيب في مقابلة معه بمنزله بتاريخ ٢٠٠٤/٧/٢٩م . وبحضور بروفيسور أحمد إبراهيم دياب .

السودانية المحلية أن العرب جاءوا إلى هذه المنطقة قديماً واختلفوا بالسكان الأصليين كشأن كثير من العرب الذين تصاهروا مع أصل أهل البلاد الأصليين .

وهذا الرأي مال إليه الباحث المصري الشاطر بصليي عبد الجليل وقد أعلنه في محاضرة له بدار القضاء في الخرطوم بتاريخ٢٣/ مايو ١٩٤٥م مؤكداً بان الفونج من أصل عربي ، وقد يكون أصلهم البطون التي عبرت البحر الأحمر إلى الشاطئ الغربي وقد حقق هذه النظرية في كتاباته عن السودان . وقد مال إلى هذا الرأي وأيده الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد في كتابه التربية في السودان ، وهو عبارة عن أطروحة دكتواره تمت طباعتها في كتاب من ثلاث أجزاء[1]. وهذا يرحجه الباحث بناء على تقدم ذكره من وجود عربي قديم ، وأن السودان كان مأوى للفارين من الاضطهاد خلال قرون طويلة كما كانت منطقة جذب اقتصادي ودعوية هامة .

والنظرية الثالثة تؤكد أنهم من نسل بني أمية الذين هربوا إلى الحبشة ، ونتيجة لتهديد العباسيين للنجاشي سمح لهم بالخروج إلى جبال مناطق النيل الأزرق فاختلطوا بالسكان وأصبح لهم السلطان فيما بعد [2].

ونتيجة اتحاد بين ملوك الفونج القاطنين جنوب النيل الأزرق

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : مصدر سبق ذكره . ج١ ص ٣٧ . هامش (١)

(٢) جولييت عدلي غابيوس : مصدر سبق ذكره ص ٤٨ .

والعبد لاب وهم مشيخة عرب جهينة القواسمة في شمال السودان في منطقة سنار ، وقامت سلطنة الفونج الإسلامية التي برزت فيها العناصر ذات التوجه الإسلامي إلى السطح . وتكونت نواة سلطنة الفونج الإسلامية عام (٩١٠هـ – ١٥٠٥م). ونتيجة لطبيعة تكوين هذه السلطنة وانتمائها العرقي والفكري ومضمون وجدانها الروحي ، أن نتيجة بأنظارها إلى مكة باعتبارها مهوى أفئدة كل مسلم وبوصلة صلاته والتي يتجه إليها خمس مرات يومياً إن اقتصر أمره على الفرائض . لذا غرابة أن اتجهت أنظار سلطنة الفونج ومنذ البداية إلى الارتباط الثقافي والروحي بمكة المكرمة . والمدينة المنورة لتأكيد الرباط الثقافي والفكري ولرفع كفاءة أدائها التعليمي ليتناغم مع ما هو مكنوز وموجود في هاتين العاصمتين الروحيتين المقدستين [1].

كما أنه عند ظهور هذه الدولة الفتية (٩١٠هـ – ١٥٠٥م) كانت بمثابة تعويض لما فقده المسلمون الأندلس ، وكانت تعتبراً قوياً آخر عن قدرة المسلمين على التعويض والإبداع ، بالتالي كان طبيعياً أن يرنوا سلاطينها إلى شرف الانتماء إلى آل البيت ، كما أن الحج كان أملاً يراود الملوك والعلماء والتجار . مما ساعد على تحقيق هذا الأمل سهولة الاتصال عن طريق سواكن البحر الأحمر الذي كما قدمت لم يكن حاجزاً أو مانعاً طبيعياً يستحيل تجاوزه أو عبوره .

(١) أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي /مصر/ القاهرة/ مكتبة النهضة المصرية/ الطبعة الخامسة سنة ١٩٩٠م ج٦ . ص ٣٢ .

وقد سعت السلطة الزمنية وفي وقت مبكر لتذليل كل الصعوبات لتحقيق هذا التواصل ، فقد مهد الشيخ عجيب بن عبد الله جماع لهذا الاتصال وتقويته وذلك بعمل (حفير) أي حوض على طريق قوافل الحجاج في شرق السودان ، لجميع ماء المطر مشكلة مياة الشرب وذلك في (٩٦٠هـ – ١٥٦٠م) .

وقد ساعد ذلك الحفير أي هذا الحوض الضخم إلى حد كبير في التذليل وعورة هذا الطريق . وقد كانت هذه الجهود بداية السعي لتحقيق أمكبر قدر من التواصل والاستفادة من العطاء المكي على المستوى الثقافي والفكري والاجتماعي والاقتصادي والعرقي إلى أبعد مدى . ثم ذهب بنفسه وهو يمثل أحد أضلاع قمة الهرم السياسي في دولة الفونج إلى الحج . وأقام هناك زمناً جاور فيه وأسس رواقاً بمكة والمدينة وذلك أغراء للحجاج وطلاب العلم والمجاورة من بلاد السودان وتسهيلاً لمهمة أدائهم لفريضة الحج وطلب العلم والمجاورة [1].

مكة والأثر الروحي والثقافي على السلطنة :

ومما لا شك فيه أن ارتباط مكة بنزول الوحي وبزوغ فجر الدعوة وبفريضة الحج الركن الخامس من أركان الإسلام ثم غدت مكة واحدة من المراكز الثقافية الهامة بل أضحت الرقم الصعب الوحيد في حياة أي مسلم من الناحية الروحية ، والتي يسعى إليها الحاج لأداء فريضة الحج وطلب العلم بالمجاورة . ولما كانت مركزاً

(١) جولييت عدلي غابيوس : مصدر سبق ذكره ص ١٣٦ .

يلتقي فيه علماء المسلمين ومفكروهم ويتبادلون الآراء والفتاوى والأبحاث كان أثرها أقوى ودورها أعظم من أي مركز أخر في العالم. ويتجلى ذلك أوضح ما يكون في القصة التالية وهي تتلخص في:

أن أحد علماء تمبكتو محمد بن أحمد بن محمد النازختي لما ذهب إلى الحج لقي هناك شيخ الإسلام زكريا الأنصاري والقلقشندي وابن أبي شريف وعبد الحق السنباطي وجماعة فأخذ عنهم الحديث وسمع وروى عنهم (١). ولما عاد من هذه الرحلة المباركة مفعماً بهذه الروحانية العالية وبهذا القبض من العلم والمعارف ترك أثراً على كل المناطق التي مر عليها السودان أولها .

ونحن نعلم أن طريق الحج كان يومئذ يمر بالسودان وأن الحاج الذي يجتاز السودان ذهاباً وإياباً لا بد أن يترك في هذا البلد أثراً كما لا يخفي أن أمر الحج والمجاورة في مكة لم تكن يومئذ مرتبطة بقيود إقامة أو تأشيرة دخول أو خروج كما هو الحال في الدولة الحديثة التي تأثرت بما هو وافد ، ولذلك كان المسلم حيثما حل يكون قد حل بين أهله وعشيرته فجنسيته عقيدته . وفي فترة الفونج كان من رواد العلم والمعرفة والثقافة والتربية في السودان في النصف الأول من القرن العاشر الهجري عدد من العلماء الذين كان لمكة عليهم أثر بالغ ودور بارز لا تخطئه العين .

من المعلوم أنه في معظم أنحاء السودان كانت السادة للمذهب المالكي . وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون بأن تلك الفترة كانت قمة

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : مصدر سبق ذكره . ج١ ص ٣٧ .

انتصار المذهب المالكي[1] لربما لمحافظته ولتشدده الملائم للطبيعة الأفريقية .

ولكن بعد استقرار الحال في سواكن التي كانت قبل وبعد سيادة الدولة العثمانية من الناحية الإدارية تابعة لمكة أضحى فيها للمذهب الحنفي الذي جاءها عن طريق مكة وجود معتبر . ونلاحظ أنه وبعد السيادة العثمانية عليها بعد (٩٢١هـ - ١٥١٦م) فقد وردت التعليمات من اسطنبول إلى القاضي قضاة مكة المكرمة بأن ينشئ محكمة شرعية بسواكن ويعين فيها أحد علمائها لمنصب القاضي الشرعي ، فوقع اختياره على الشيخ محمد محي الدين بن أحمد بن محمد القملي ، وكان أعلم أهل سواكن بالمذهب الحنفي مع إجادته التامة للمذهب الشافعي .

وبالرغم من أن سواكن لم تكن تابعة لسلطنة الفونج من الناحية الإدارية إلا أن أثرها وعلم رجالها كان له أثر بالغ على السلطنة ورعاياها . الأمر الذي اقتضي التعرض لها في هذا الجزء من السرد التاريخي الذي يوثق للأثر المكي على السودان الحالي . هذا بغض النظر عن التبعية الإدارية والسياسية لسواكن . بيد أن سواكن كانت منفذاً للدولة النارية دون أدنى شك ويتأثر الغادي والرائح بأمنها وبثقافتها وبواردها الروحي والثقافي والاجتماعي وهي جزء من السودان الحالي .

(١) ابن خلدون : العبر : مصدر سبق ذكره ج٦ ص ١٥٦ .

ولقد طلب والي الحجاز وقاضي قضاه مكة من الشيخ محمد محي الدين أحمد بن محمد القملي أن ينشئ محكمة شرعية على نظام المملكة العثمانية فاعتذر عن قبول الوظيفة وقال : (إني عزم على مجاورة الحرم الشريف بمكة) فقال له الوالي : (لك الحق في أداء الحج سنوياً على حساب (البادشاه) سلطان السلاطين أو ملك الملوك). وانك تتلقي التعليمات دائما من قاضي مكة المكرمة وليست للمحافظ (القائمقام) التركي أي سلطنة على أعمالك ، فوافق القاضي على الوظيفة واستلم من قاضي مكة المنشور الوارد من الأستانة (أسطنبول) من شيخ الإسلام وتوجد مجموعة من الوثائق الصادرة من هذا القاضي [1].

ولعل هذه الإشارة تؤكد على أن المذهب الحنفي بانتشاره باعتباره مصدراً للعمل القضائي بالسودان هو أثر مكي . لأن الأستانة لم تكن تخاطب وإليها على سواكن مباشرة وإنما جاء الأمر عن طريق مكة حيث كانت الهيمنة الروحية والفكرية والعرقية لمكة ، وكانت سواكن كما قدمنا تعتبر جزءاً من مكة حتى عندما تصدر أوامر إدارية بشأن مكة كانت سواكن تعتبر من توابعها ، الأمر الذي يدل على عمق العلاقة وبعدها التاريخي ولعل ذلك دعا الدولة العثمانية للمحافظة على هذا التقليد لعلمها بالرابطة العريقة بين البلدين .

---

(١) محمد صالح ضرار : مصدر سبق ذكره ص ١٣٢ .

روافد العلم والمعرفة في السودان وارتباطهم بمكة :

لقد كان من رواد العلم والمعرفة والثقافة والتربية في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي عبد الرحمن بن جابر الأنصاري الذي درس في الأزهر على يد الشيخ محمد البنوفري [(١)]. وكما كان يفعل شيخه ، ظل عبد الرحمن يقسم السنة إلى ثلاث أقسام : أربعة أشهر في القاهرة وأربعة أشهر في الإسكندرية وأربعة أشهر يحج فيها إلى بيت الله الحرام، وذلك أثناء تلقيه العلم وبعد عودته للسودان وإنشائه لمدارس كانت في مستوى مدارس عليا إذ كان يدرس فيها مختصر خليل [(٢)] وهو من الكتب التي لا يتم تدريسها للمبتدئين من الطلاب إذ لا يدرس إلا لمن نال قدراً عالياً من علوم الشريعة . ومن المأثور عندنا في السودان لدى طلبه العلم في المعاهد العلمية سابقاً (اللي ما درس خليل علمه قليل) أي أن الذي لم يدرس خليلاً علمه قليل ودون المستوى المطلوب .

ولا شك أن ذلك كان له أثر بالغ على تكوينه الثقافي والفكري والروحي ، وبعد عودته إلى السودان فقد اتخذ ثلاثة

(١) هو المصري الفقيه الصالح الزاهد الورع ، كان من أعيان فقهاء مصر ، اشتهر بالدين والخير والورع والزهد ، أخذ العلم عن الناصر اللقاني والباجوري وغيرهما ، آلت إليه رئاسة المذهب المالكي دون منازع . كان على ما قيل يختم مختصر خليل في أربعة أشهر ويمشي لرباط الإسكندرية أربعة أشهر ويحج أربعة أشهر . وتوفي سنة ٩٩٨هـ . أنظر عبد العزيز أمين عبد المجيد : مصدر سبق ذكره ج ١ ص ٦٦ .

(٢) خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب : من كبار علماء المذهب المالكي بمصر . ألف مختصراً للمدونة في المذهب المالكي وجمع فيه فروعاً كبيرة/ جوليت عدلي غابيوس/ مصدر سبق ذكره ج ص ٨٧ .

مساجد لتدريس فقه المالكية وسائر الفنون أحدها في دار الشايقية والثاني في كورتي والثالث في دنقلا الدفار . وكان يقرأ مختصر خليل في كل مسجد أربعة أشهر ، وحين الحج يذهب إلى مكة يمكث فيها مجاوراً أربعة أشهر [1].

نلاحظ أن مكوث هذا الرائد منذ أن كان طالباً أربعة أشهر كاملة كل سنة بمكة ، مما كان له أكبر الأثر في تقافته وفي نسيج تكوينه الفكري والسلوكي والروحي .

التصوف [2] والدور المكي :

في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي أخذت المساجد تظهر بصورة كثيفة في السودان وأخذت علوم الإسلام من فقه وعلوم وقرءان وعربية وأصول دين وفقه تنتشر .

وفي هذا الوقت وفد إلى السودان من مكة شيخ من شيوخ الصوفية يسمي تاج الدين البهاري [3]. وهو من خلفاء الشيخ عبد القادر

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : مصدر سبق ذكره ج ص ٦٦ .

(٢) لقد بدأت حركة التصوف في أول أمرها مختلفة عن صورتها المعهودة الآن ، كان قوامها رجل يعتقد الناس في صلاحه ويرجون بركته . وقد أخذ التصوف في السودان منذ بواكير أيامه يهمين علة التعليم والثقافة . والتصوف عموماً هو مدرستان : مدرسة علمية ومدرسة وراثية – مدرسة المعرفة ومدرسة السجادة ، والأخيرة هي الأخطر والأبرز : محمد إبراهيم سليم : الطائفية في السودان / الخرطوم/ دار الوثائق محموعة أبو سليم ٩/١/٧٠ . بحث غير منشور .

(٣) نعته أو وصفه مأخوذ من قولهم قمر باهر أي مضيئ ، سمي بذلك لضياء وجهه ولربما النسبة إلى بهار =

الجيلاني (٤٧١ – ٥٦٢هـ) (١٠٧٩ – ١١٦٦م) .

ولقد حج البهاري إلى بيت الله الحرام ، ومكث مجاوراً جرياً على عادة العلماء والفقهاء في تلك الأزمان ، ويذكر ود ضيف الله صاحب الطبقات أنه قدم إلى السودان بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم [1]. ولا يخفى على الباحث أن البهاري لم يكن أصلاً من أهل مكة بل أن كثيراً من أهل مكة لم يكونوا من أهلها الأصليين . وإلى يومنا هذا قد يستقر بها من ليس من أهلها لأنها عاصمة دينية وجنسية المسلم عقيدته . بيد أن المكوث فيها يترك اثراً على الفرد من الناحية الثقافية والدينية والاجتماعية وهذا ما عناه الباحث بالأثر المكي .

ولكن في تقدير الباحث أن مسألة الرؤيا والاعتماد عليها باعتبارها حقيقة تشريعية ملزمة مما يتنافى مع مسلمات الشرع القطعية التي تقضي بانقطاع وجفاف الأقلام ورفع الصحف . ومهما يكن من أمر فإن الرؤيا والاعتماد عليها كانت ولا تزال تشكل ركناً في أوراد ومعطيات الصوفية وهي ظاهرة صوفية فيها أخذ ورد قديماً وحديثاً ، ولم يخرج صاحب الطبقات في كثير مما أورده في

=

Bilhar وهي بدة ومقاطعة في الهند فتحها المسلمون في آواخر القرن الثاني عشر الميلادي (١١٩٧م) وقد ظلت بهار عاصمة المقاطعة لمدة ثلاثة قرون : أنظر طبقات ود ضيف الله / مصدر سبق ذكره (تحقيق إبراهيم صديق) ص ٤٤ وعبد العزيز أمين عبد المجيد : مصدر سبق ذكره ج١ ص ٦٦ .

(١) محمد بن ضيف الله الجعلي : المصدر السابق (تحقيق إبراهيم صديق) ص ٤٤ .

كتابه عن هذا الإطار وعن مضمون هذا الفكر الذي سيطر على رقعة واسعة من العالم الإسلامي . حتى أضحت في بعض الحالات من المسلمات التي لا تقبل الجدل في نظر العامة . وحتى أضحي ذلك مؤثراً على الجانب الاعتقادي لدى العامة . ولربما استغله ذوو الحاجات والأغراض لبلوغ غاياتهم .

ولكن الذي يبدو لي أن البهاري كان شيخ طريقة وداعية لهذه الطريقة وفي ذات الوقت كان صاحب مذهب سياسي شيعي يرنو إلى ترويجه وتسويقه بحكم الوجود السوداني الكثيف في الحج . فلقد التقاه أحد كبار التجار السودانيين وحبذ له القدوم إلى السودان باعتباره أفقياً جديداً وأرضاً خصبة يمكن له أن يزرع فيها زرعه وأن يغرس فيها بذور أفكاره ، فراقت له الفكرة وصادف منه هوى ، وليجمل ذلك بشيء من الزينة وضع قدراً من المقبلات الضرورية فكانت دعوى إذن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وبالتالي نلاحظ أن هذا التاجر الذي أقنعه بالقدوم إلى السودان هو داؤد بن عبد الجليل من التجار الذين يسافرون كثيراً إلى مكة ، وتذهب بعض الروايات المشهورة إلى أن والد داؤد كان يعيش في مكة مجاوراً بها ، الأمر الذي له دلالته ، فهو سوداني لكنه يجاور بمكة مستقراً بها . وأن ابنه داؤد كان قد وفد إلى السودان وسكن أربجي . وقد كان داؤد واسع التجارة وخلفه ابنه سعيد [1]. الأمر الذي يدل على متانة الرباط بين كل من مكة والسودان ، وأن

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : مصدر سبق ذكره. ج ١ . ص ٦٦ .

الأمر قد تجاوز الأثر الثقافي والفكري والروحي العابر إلى الاستقرار . إما في السودان ابتغاء الدعوة والإرشاد والرزق أو في مكة مجاورة للبيت الحرام . وطلباً للعلم والمعرفة والارتقاء الروحي والسلوكي وملازمة العلماء والفقهاء ورجالات التصوف .

ولقد كان قدوم تاج الدين البهاري في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري (٩٨٥هـ) القرن السادس عشر الميلادي أول ملك الشيخ / عجيب المانجلك [١] المؤسس الثاني للدولة السنارية وسكن تاج الدين البهاري مع داؤد عبد الجليل في وادي الشعير أو أم شعير [٢].

وظلت آثار إقامته تتمثل في الخلوة التي بناها إذا كانت موجودة إلى بداية القرن العشرين . وكانت وسط ترس [٣] يقال له ترس تقي . الأمر الذي يحكي قصة البساطة والكرم السوداني الفياض وقدرة الشخصية السودانية على الاستيعاب والجذب ومدي سماحة الطبع السوداني . وأقام تاج الدين بالسودان سبع سنوات تزوج خلالها من الأهلين وأنجب بنتين وقيل ثلاثاً .

---

(١) مانجل أو ما مجلق أو ما نجلك : لقب عرف به ملوك العبدلاب في مملكة الفونج ومعناها كما ذهب إليه بعض المؤرخين أنها تعني الوزير بلهجة الهمج . وقال نعوم شقير أنها مشتقة من مانجل إلا اياك ، وقيل أنها من أمانوكيل بلهجة الطوارق وتعني زعيم القبيلة (أنظر : عون الشريف قاسم : قاموس اللهجات العامية في السودان / مصر / القاهرة / المكتب المصري الحديث/ الطبعة الثانية ١٩٨٥م ص ١١٠٢ .

(٢) وادي الشعير منطقة تقع بأرض الجزيرة المروية وراء حلة ولد الجزولي تابعة لمدينة الحصاحيصا . أنظر طبقات ود ضيف الله (تحقيق إبراهيم صديق) ص ٤٤ .

(٣) الترس : وهو الحاجر الترابي العالي عند أهل السودان وهو أشبه ما يكون بالسد المانع .

ويشير ذلك في تقدير الباحث إلى الانصهار العرقي وطبيعة التكوين السكاني في السودان الذي تغلغل في الدم العربي وتغلغل فيه الدم العربي منذ هاجر أم إسماعيل عليه السلام ومروراً بعنترة بن شداد وبلال بن أبي رباح الحبشي (السوداني) ويزيد بن أبي حبيب التابعي الفقيه وهو من دنقلا أيضاً ، وأم أيمن حاضنة الرسول صلى الله عليه وسلم وأبنها أيمن وزيد بن أبي نمى ابن الشريف وإلى والي مكة في القرن الرابع عشر الميلادي ومحمد عثمان الميرغني الكبير وزواجه عدداً من النساء من سنار وإنجاب ذريته منها . وإبراهيم الرشيد الشايقي تلميذ أحمد بن إدريس الفاسي ومؤسس المدرسة الدويحية [(١)].

وقد استطاع البهاري خلال هذه الفترة أن يسلك عدداً من الريدين في الطريقة القادرية [(٢)]. وسلك خمسة رجال منهم محمد الهميم والشيخ بان النقا الضرير وحجازي بن معين باني مسجد مدينة أربجي ، وشاع الدين ولد التويم جدا الشكرية والشيخ العجيب المانجلك وقيل

---

(١) عفاف محمد خيري نصر : مرجع سبق ذكره ص ١٤ .

(٢) تنسب هذه الطريقة إلى الشيخ محمد محي الدين عبد القادر بن أبي صالح المولود في مدينة جيلان في عام ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م وجاء إلى بغداد عام ٤٨٨هـ - ١٠٩٥م ودرس مذهب الإمام أحمد بن حنبل لكنه رفض الإنتظام في المدرسة النظامية التي كان يشرف عليها الشيخ أحمد الغزالي . ويقال أنه لم يعتنق أي فكر صوفي حتي حضر إلى مدرسة أبي الخير حمد الدباسي المتوفي (٥٢٤هـ - ١١٣١م) وقضي عبد القادر خمسا وعشرين سنة يتجول في صحراء العراق وفي (٥٢١هـ - ١١٢٧م) عندماجاوز الخمسين صار فجأة من أشهر العلماء على الطريقة الحنبلية وكان يلبس رداء العلماء ولبس المتصوف ثم بني مدرسة لنفسة عام (٥٢٨هـ - ١١٣٥م) واشتهر عبد القادر بورعه ولم يتم الانضمام الى طريقته الا بعد وفاته : عبد الرازق : الطرق الصوفية في القاهرة الافريقية/ مصر /القاهرة / دار الثقافة للنشر والتوزيع/ ط ١/ ٢٠٠٤م ص ٢٩ .

سلك أربعين إنساناً آخرين منهم حمد النجيض صاحب مسجد الجزيرة إسلانج والفقيه رحمه جد الحلاويين ولكن المعتمد منهم اثنان محمد الهميم وبان النقا الضرير .

هناك ملاحظتان حول أسلوب هذا الداعية : أولهما أنه ركز الدعوة على علية القوم ليصبح للطريقة مركز ممتاز ونفوذ وقوي . وكان من بين من أعطي العهد الشيخ عجيب بن عبد الله بن جماع زعيم العبدلاب الرجل الثاني في مملكة الفونج ، وكانت منطقة شمال الخرطوم خاضعة للمكة . وكان منهم محمد الأمين الهميم ابن عبد الصادق رأس الأسرة الصادقية بسنجة ، وبانقا الضرير مؤسس أسرة اليعقوبات المشهورة وعبد الله دفع الله زعيم العركيين [1].

وبالرغم من مساوئ ما ترتب على ذلك التسليك بهذه الكيفية ومن قبل هذا الشيخ من أضرار أثرت على مفاهيم العامة واعتقاداتهم بل خروج عن حدود الشرع الظاهرة ، وكما حدث لمحمد الهميم وبان النقا الضرير .

وكانت تلك الخطوة هي بداية مشوار من المعاناة العقدية لأن التصوف اعتمد في بداياته على مجموعة من الجهلة الذين حسبوا أنهم عبر طريق الرياضة الروحية وترديد الأذكار ولفظ بعض أسماء الجلالة يمكن أن يتجاوزوا المعرفة الشرعية [2] وبذلك أضلوا وضلوا .

(١) محمد إبراهيم أبو سليم : الطائفية في السودان/ الخرطوم/ دار الوثائق القومية/ مجموعة أبو سليم ٩/١/٧ بحث غير منشور .

(٢) من هؤلاء ما يدعي بالشيخ محمد الهميم الذي تزوج بأختين من بنات زميله بان النقا الضرير خادم الله =

الأمر الذي أثر مستقبلاً على تحصيل العلم والمعرفة وحفظ كتاب الله تعالى إذ اختلط التصوف بتحصيل العلم الشرعي ولم يكن السودان نشازاً بل عزف مع العالم الإسلامي الذي سيطر علية هذا الفكر الانسحابي الاعتزالي أو الهروبي من مواجهة الواقع . ولقد كان هذا الأثر على السودان هو أثر مكي خالص . ولا نعني بذلك أنه تفرخ في مكة ولكنها كانت مكة النافذة التي عن طريقها جاء إلى السودان. ولقد قام أتباع تاج الدين البهاري بنشر طريقته وتسليك آخرين من بعده.

ويلاحظ أنه بعد قضاء سبع سنوات في السودان رجع الشيخ تاج الدين البهاري تارة أخرى إلى مكة ، وكان ممن رفض أخذ الطريقة عنه بالسودان الشيخ عبد الله العركي الذي تلقى دراسته الشرعية على يد عبد الرحمن بن جابر ونال درجة من العلم فأنفت نفسه أن يكون واحداً من الرعاع وأن يسير في صف القطعان .

ولكن بعد رحيل تاج الدين وإقبال الناس على أتباعه من بعده وإنصرافهم عم العلماء يبدو من ملاحظة عبد الله العركي العالم صاحب المعرفة الحقة والعلم الشرعي أن الناس قد انصرفوا عن العلم الشرعي ومالوا إلى التصوف الذي جعل الإنسان يبني أحلاماً من

=

وكلثوم وأختين أخريتين وجمع بينهن الأربعة إضافة إلى ثلاثة أخر بدعوى أن الرسول صلي الله عليه وسلم قد أذن له مما يدل على جهل مطبق . وبذا سيطرت أفكار خارجة على حدود الدين باسم التصوف على العامة وهيمنة مدرسة السجادة الوراثية على المدرسة المعرفة والعلم الغزالية : انظر طبقات ود ضيف الله المصدر السابق تحت اسم محمد الهميم (تحقيق إبراهيم صديق) .

كثبان الرمل دون جهد أو حفظ متون أو حفظ آيات كثيرات أو سور معدودات . حدا به ذلك إلى قناعة ضرورة أخذ الطريق من هذا الشيخ الذي فتن الناس . وحسب أن ذلك هو الخير حيث أصبح هذا العالم فريسة للإعلام الصوفي فاستدل الذي هو خير بالذي هو أدنى .

وحقاً كان مجيء البهاري إلى السودان فتنة في الدين لأنه قد غرس غرساً أثر على معتقدات وتوجهات الناس ومضمون أفكارهم الصحيحة فالتحق به الشيخ عبد الله العركي في مكة ظناً منه أن هذا هو الطريق السديد ولكن بعد وصوله إلى مكة وجد أن تاج الدين قد رحل عنها إلى غير رجعة فأخذ الطريقة القادرية من تلميذه الشيخ حبيب العجمي وظل مجاوراً بمكة سبع سنوات [(١)]. الأمر الذي يؤكد على أن الشخصية السودانية هي شخصية مرهفة الحس ما أن تصل مكة حتى يشدها البيت إليه فتنجذب في مجاورة تمتد إلى سنوات صقلاً للروح وإثراء للتجربة .

ويلاحظ أن هذا الشيخ لو أكتفي بما تلقاه من علم شرعي في دار الشايقية على يد الشيخ عبد الرحمن بن جابر بن عون بن رباط أحد مشاهير حداه ركب العلم والمعرفة والتربية في السودان [(٢)] وذهب للمجاورة بمكة لكان أفضل له بألف مرة مما يفعله حين افتتانه بهذا الشيخ وطريقته غير القويمة القائمة على أكتاف الجهلاء والرعاع من العامة من أمثال محمد الهميم بن عبد الصادق وبان النقا الضرير

(١) محمد بن ضيف الله محمد الجعلي : مصدر سبق ذكره (تحقيق إبراهيم صديق) ص ١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٢ .

تلاميذ البهاري الأوائل . ولا شك أن ما قام به جهل مآله إلى جهل .

ولكن ما يمكن قوله أم مكة كانت محضنا هاماً في بنية وتفريج الثقافة الفكرية والروحية السودانية ومؤثرة في مضمون بنية الإرث الفكري والوجداني السوداني . فما من عالم نال قدراً من الوجود الاعتباري والأثر الواضح ، وأضحي رقماً صعباً في التاريخ السوداني إلا عليه أثر . الأمر الذي يؤكد على الوجود المكي الفاعل في تكوين الوجدان السوداني وتشكيله تربية وعلماً ومعرفة وروحاً وتوجهاً . حيث يلاحظ أن عملية التزيين والتكميل والتجميل والتحسين لكل ما يناله من له قدر في السودان لا يبلغ ذروته ومدياته إلا بتعطير حياته وروحه بشذا المجاورة لعدة سنوات يقضيها بمكة يتزود فيها بوقود روحي وفكري وإيماني ويتجمل بمكوثه بمكة فيحمل عطرها وشذاها إلى السودان .

ومهما يكن من أمر فإن الأثر كان متبادلاً بين مكة والسودان يبدو ذلك واضحاً في قصة (الجنيد ولد طه بن عمار الذي انتحل مذهب التصوف ونال قبولا تاماً عند الملوك والسلاطين لا سيما أهل الحرمين الشريفين وسلك بعض من وجهاء مكة وساستها الطريق عليه وقد اتفق له في الحجاز ما لم يقع لأحد من ناس البر إلا شرف الدين ولد بري في حجته . وكان حجاجاً – كثير الحج – إلى بيت الله الحرام وحجته الأولى كانت سنة ستين بعد الألف (١٠٦٠هـ) زاد فيها في الدين والصلاح ولما كان آخر حجة حجاها (حجها) قال للناس أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقدوم عليه فقامت معه خلايق

(خلائق) لا يحصون توفي بأحد الحرمين وكان هو خاتمة المسلكين بأرض الفونج [١].

مما مضي يتضح أن السودان بعد أن كان مستورداً من مكة علماً وتصوفاً أصبح مصدراً لها ، وأضخى علماؤه ومتصوفته يحتلون مقاعد أمامية في الحرم المكي وأضحى لهم دور مقدر وبارز .

العبارات السابقة للفقرة أعلاه هي من تطريز صاحب الطبقات ود ضيف الله . إذ تؤكد هذه العبارات على وجود التبادل في الأثر والعطاء الفكري والروحي والثقافي ، كما تؤكد على أن العالم الإسلامي في هذه الفترة كان يعيش في أزمة فكرية وروحية وثقافية وسياسية . ويعيش في فترة ركود سيطرت فيها الخرافة وغلب فيها التمادي في التعاطي مع الإيمان بالخوارق . وهي دلالة عجز وأزمة عقل وهي ذات القترة التي تنحى فيها العالم الإسلامي عن القيادة وتسارعت فيها خطى الغرب وغربت فيها شمس المسلمين .

وليست المسألة مشكلة السودان إنما هي مشكلة مكة أيضاً حيث يقوم هذا الشيخ السوداني بتسليك عدد من المكيين من أصحاب الجاه والسلطان في الطريق كما حدث أول مرة حينما سلك أحد القادمين من مكة أهل السودان في ذات الطريق وأضحي أهل السودان هم الذين يسلكون غيرهم في الطريق على قول الشاعر : علمته الرماية فبما اشتد ساعده رماني .

---

(١) محمد بن ضيف بن محمد الجعلي مصدر سبق ذكره (تحقيق إبراهيم صديق) ص ٦٤ .

ولقد ظل ارتباط سنار بالحرمين ارتباطاً قوياً جداً . حيث يروى أن الشيخ عجيب المانجلك وهو من المؤسسين لسلطنة الفونج الإسلامية لما حج إلى البيت الحرام بني بمكة والمدينة منازل سميت بالرواق السنارية . الأمر الذي أدي إلى كثافة الوجود السوداني بمكة ، وشجع الكثيرين منهم على المجاورة والاختلاط بأهل مكة سنوات عدداً وعمق الروابط بين أهل مكة والسودان .

ويذكر صاحب الطبقات أن عبد الله بن دفع الله العركي حج إلى بيت الله الحرام أربعا وعشرين مرة أثنتا عشرة منها جاور فيها بمكة ودرس في مقام الإمام مالك بالمدينة وأنه أطال مكثه في مكة والمدينة حتى ذهب إليه أخوه الشيخ إدريس ومعه الحاج سلامه والعتباني وأحضراه فلما رجع أخذ يعلم الناس ويرشدهم [1].

مهما يكن من تقدير وتحليل فإن هذا التدافع وهذه الكثافة من التواجد السوداني بمكة من قبل العلماء وفقهاء ومتصوفة ، وهذه الكثيرة البالغة من المجاورة لا يمكن تجاوزها إذ تشكل مرتكزاً هاماً في البنية السودانية الثقافية والفكرية والروحية . وقد تركت بصماتها على مضمون الوجدان السوداني .

ويروي أن الشيخ عبد الله بن دفع الله العركي قد استرعى انتباه العلماء إليه في مكة بلباقته وحسن تدريسه وعلمه حتى لقد طلبوا إليه أن يعيش ويستقر بمكة للتدريس ولكنه رفض وذكر إن

(١) المصدر السابق ص ١٠٧ .

عليه واجباً علمياً لأهل بلاده وأن الأولى أن يرجع إليهم [١]. واكتفي بالمجيء إلى الحج والمجاورة سنوات معدودات والتدريس أثناء هذه المجاورة . إن المجاورة من قبل هؤلاء السودانيين بمكة لا تعني الانقطاع والانعزال وإنما كانت تعني نشر العلم والمعرفة والتسليك في الطريق أو اخذ الطريق . بمعنى آخر فإن المجاورة كانت تعني لدي السودانيين دوراً إيجابياً وقدراً من النشاط واكتساباً لقدر من المعرفة السلوكية العلمية ومستوى من المعرفة العقلية بالإضافة إلى السياحة الروحية .

وما يجب ملاحظته أن الشيخ تاج الدين البهاري كان مصنفاً لاتجاهات الإسماعيلية إذ كانت هذه الاتجاهات ذات الصبغة السياسية وراء عقيدتهم الدينية . فقبلت الدولة السنارية بذكاء الجانب الصوفي الديني ورفضت الجانب السياسي بالرغم من أن تاج الدين البهاري قد تمكن من استمالة المؤسس الثاني للدولة السنارية عجيب المانجلك وتدعيم مذهبه الصوفي القادري [٢].

ونلاحظ أن ممن سافر إلى مكة فيها العلم والطريقة هنالك محمد بن الشيخ محمود العركي وقد أخذ التصوف عن الشيخ محمد البكري (لعله من الأشراف البكرية) . الأمر الذي يعرض صورة مقلوبة ، فابن العالم الأزهري الذي غير وجه المنطقة التي جاءها علماً ومعرفة وتنويراً وإرشاداً يركض ابنه وراء التصوف ويطلبه من مكة وهي على توجه يعكس ردة الأحفاد عن مرتكزا أمجاد الأجداد .

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد مصدر سبق ذكره ج١ ص ٢٢٠ – ٢٢١ .

(٢) عبد القادر محمود : الفكر الصوفي : مصدر سبق ذكره ص ٥١ .

وهي ملاحظة لا تخطئها عين في مجال السياسة والدين ولها أمثلة كثيرة في الواقع مثل أحفاد المهدي والشيخ أحمد الطيب البشير ومحمد الأكبر والشيخ أحمد الهدي وأحفاد سلاطين الفونج.. الخ .

وقد كان بعض السودانيين يذهب إلى مكة فيجاور في البيت الحرام هناك ولا يرجع إلى بلاده كالشيخ محمد العجمي بن حسونة الذي سافر إلى الحجاز وجاور بمكة في رباط العباس حيث أقام هنالك للذكر والعبادة والعلم . وقد رآه إبراهيم بن بري أحد شيوخ السودان المشهورين وشاهد ما هو فيه من صلاح وعبادة وعلم ومعرفة ومكانة بين أهل مكة ونقل ذلك إلى أهله ومعارفه بالسودان (١).

مكة وانتشار علم المنطق والتوحيد وعلوم العربية :

فكما كان لمكة دور في التربية الروحية والإعداد والتأهيل السلوكي كان لها دور آخر في مجال نشر العلوم الشرعية والعربية والعقلية ، ومن العلماء المشهورين الذين كان لهم أثر وكان لمكة عليهم أثر مباشر من حيث التأهيل والإعداد الروحي والعلمي والتربوي الشيخ محمد بن عدلان الشايقي الحوشابي شيخ الإسلام والمسلمين خاتمة المتكلمين والمجددين للدين الذي حج إلى بيت الله وجاور به . وهنالك تلقى علم الكلام والمنطق والأصول والعربية على عبد الله المغربي الذي كان شيخاً لعلي الصعيدي العدوي الذي كان عالماً من علماء المذهب المالكي في القرن الثاني عشر الهجري.

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد / مصدر سبق ذكره . ج١ ص ١٢١ .

وحين قدم محمد بن عدلان بعد هذا التأهيل الراقي إلى تنقاسي من دار الشايقية في شمال السودان أوقد نار القرآن والعلم ونار الكرم ونار علم العقول . وبدأ بتدريس علم الكلام على كبرى السنوسي ووسطاه والصغرى وهي أم البراهين[١] . ولم يكن تدريس هذه الكتب معهوداً في جزيرة الفونج إلا أم البراهين ومع كتب السنوسي كان محمد بن عدلان يدرس علم المنطق وعلم أصول الفقه وعلم العربية [٢].

ومما لا شك فيه ومن خلال الإرشادات السابقة يبدو أثر مكة واضحاً وجلياً في صياغة وإعداد وتأهيل القيادات الفكرية والعلمية والتربوية في السودان . الأمر الذي له دلالته الموضوعية من حيث قوة هذا التأثير وتغلغله في الكيان السوداني شماله ووسطه وشرقه . فلم تعد مكة هي قبلة الصلاة فحسب بل كانت مغنطيساً جاذباً . إذ لا يكتفي أحدهم بالتوجه إليها في الفريضة لتصبح تلقاء وجهه بل كانت مستقراً للكثيرين منهم إذ تشكل محطة وقود ونقطة تزود لا بد منها .

حيث نلاحظ أن صانعي الأحداث والأقدار التربوية والثقافية والروحية والفكرية في السودان كانوا بصورة أو أخرى صنيعة مكية.

(١) هذه الكتب لا صلة لها بمحمد على السنوسي الكبير وهي كتب تبحث في أصول الدين أو ما يعرف بعلوم الإلهيات . ولقد ظلت تدرس في كليات أصول الدين بالسودان بالسنة الأولى إلى يومنا هذا . وموجوداً بالمكتبات السودانية .

(٢) محمد بن ضيف الله بن محمد الجعلي : مصدر سبق ذكره (تحقيق إبراهيم صديق) ص ١٧٢ . أنظر عبد المجيد أمين عبد المجيد المصدر السابق ج ١ ص ٩٢ .

أما عن طريق المجاورة أو نهل المعرفة أو تلقي العلم من علماء الحرم ومجاوريه ، ومن يعودوا إلى بلادهم يغدوا مشاعل هدى وحملة نور ودعاة حق ورعاة أمة ومرشدو أجيال . وكان البعض من هؤلاء العلماء قد بلغ حداً من المعرفة والعلم والشهرة ، حتى بدا مؤثراً في أقدار مكة الثقافية والفكرية والاجتماعية والسياسية من باب (وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان) [1].

ويبدو الأثر المكي في أن السودانيين فيما قبل القرن الثاني عشر الهجري/ القرن الثامن عشر الميلادي كانوا يسيرون في التدريس والتلقين والتلقي المعرفي وفق المنهج المشرقي المكي أكثر من تأثرهم بمنهج المغرب. لاسيما فيما يتصل بدراسة القرءان وعلومه وقلة عنايتهم بالشعر والأدب. الأمر الذي يوحي بقوة الأثر المكي وطغيانه على كل المؤثرات الثقافية والمنهجية الأخرى.

ومن شيوخ السودان المشهورين الذين تركت مكة أثراً عليهم، وأثروا في السودان عطاء ومعرفة وتربيةً وإعداداً وتأهيلاً الشيخ عمارة بن شافعي الذي قرأ القرءان على الفقيه عبد الدافع وعلم الكلام والرسالة على الفقيه حمد السيد وحج بعدئذٍ إلى بيت الله الحرام فقرأ ثانية في مكة الرسالة على علمائها وتلقى علوم العربية وعلم التوحيد والتفسير[2]. ولعل ذلك يشير إلى أن العلوم كانت تستوثق مصادرها في التلقي بمكة.

(١) سورة الرحمن الآية (٦٠).

(٢) عبد العزيز أمين عبد المجيد: مصدر سبق ذكره، ج١، ص٥٩.

ولقد تعلم عمارة علوم التجويد بمكة وأضحى بعد رجوعه إلى السودان واحداً من شيوخ السودان المعدودين في مجال القرآن والفقه وعلوم العربية والتوحيد. الأمر الذي يشير إلى مشاركة مكة الفاعلة والحية في نشر القرآن وعلومه وذلك بتأهيل عدد من العلماء. ولم يقتصر دور مكة على علوم القرآن وإنما تعدى ذلك إلى علوم الدين وعلوم العربية كما سبق أن أشرنا إلى ذلك. حيث نلاحظ أن عمارة بن شافعي الذي جاور بمكة سنوات عدة قرأ ثانية علوم الدين والشريعة وعلوم العربية ولما رجع إلى السودان نصب خلوته واشتغل بالتدريس فترة تسع سنين [1]. إذن كانت مكة محطة وقود روحي وثقافي وشكلت فتيلة الإشعال للقوة الكامنة لدى هذا العالم كما هو الحال لغيره فتفجر ينابيع من العطاء والبذل بعد رجوعه إلى بلده.

ونلاحظ أن المجاورة وتوثيق المعرفة بمكة كانت أمراً متواتراً لدى علماء السودان، فلا يشعر العالم باكتمال معرفته وتوثيق ما لديه إلا إذا جاور بمكة وتلقى من علمائها الذين كانوا يفدون إليها من مشارق الأرض ومغاربها. وبالتالي كانت مكة نقطة التقاء ومحور ارتكاز معرفي وروحي يشعر المرء بقدر من النقص في مخزونه المعرفي إن لم يزرها ويمكث بها سنوات. ولعل من هؤلاء المشهورين في السودان بالحكمة السائرة والموعظة الحسنة والنبوءة الصادقة الشيخ فرح ودتكتوك الذي حج إلى بيت الله الحرام مراراً وجاور تكراراً

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد: ج١، ص١٣٧. محمد بن ضيف الله بن محمد الجعلي: مصدر سبق ذكره، تحقيق إبراهيم صديق، ص١٤٢.

وكان سبباً في إسلام عدد من النصارى على يديه مما يعتبر إشراقاً مكياً على روحه وسلوكه وتوجهه [١].

مكة واللجوء السياسي السوداني:

ولم يكن السودان دوماً ملتقياً في مجال المعرفة بل كان إيجابياً، فما أن يبلغ أحد علمائه حداً معرفياً حتى يشعر بواجب أداء ضريبة ما تلقاه أسلافه وما منحته مكة لبلاده ولعل خير مثال على ذلك (عبد اللطيف الخطيب بن عمار شيخ الإسلام الفقيه النحوي اللغوي الأصولي المتكلم المنطقي المجود للقرآن المجتهد في مذهب الإمام الشافعي، فقد حج إلى بيت الله الحرام لنكبة حصلت عليه من السلطان بادي أبو شلوخ (١١٣٦ – ١١٧٥هـ) (١٧٢٤ – ١٧٦٢م) وجاور بمكة [٢] بسبب ذلك وهو نوع من اللجوء السياسي من قبل عالم لم يجد حرية في بلاده، فقد اجتمع في مكة بعلماء المغرب والحجاز والروم والتكرور ورسخ في جميع الفنون ومدحه بعض أهل الحرم المكي فقال فيه نثراً جميلاً بديعاً ومدحه شيخه في علم المنطق الشيخ نور الدين اليمني فقال فيه رحمه الله:

ابن عمار همام ماهر جنة وملجأ للخائفين

داره أضحت بالعلم روضة فادخلوها بسلام آمنين

(١) جولييت عدلي غابيوس: مصدر سبق ذكره، ص١٣٨.

(٢) محمد بن ضيف الله بن محمد الجعلي: مصدر سبق (تحقيق إبراهيم صديق)، ص١٤٠.

وقال عنه أيضاً في قصيدة أخرى:

عالم بأنواع العلوم بأسرهـــــا حوى في الورى المعقول مع وارد النقـل

لذا طارت مكرمات صفاتـــه إلى حرم الأرض مع سايـــــر الحل

فذاك خطيب لا يحاكي بفضله كما أن للمفروض فضلاً على النقـل

خيار تقي حاكي لأصولـــــه ومن يشبه الآباء فقد جاء بالفضـــل [1]

ويـــذكر المؤرخـــون أن الـــشيخ الخطيـــب عبـــد اللطيـــف بـــن عمـــار كـــان قـــد درس جميـــع الفنـــون، حيـــث كـــان موســـوعياً علـــى عـــادة الـــسلف مـــن هـــذه الأمـــة، ولعـــل اجتماعـــه بعلمـــاء المغـــرب والحجـــاز والـــروم والتكـــرور في مكـــة قـــد ســـاعد علـــى صـــقل شخـــصيته ومكـــن لـــه فيمـــا لم يمكـــن فيـــه لغـــيره حتـــى مدحـــه علمـــاء الحـــرم. حيـــث أصـــبح رقمـــاً وشـــكل وجـــوداً وحـــضوراً لا يمكـــن تجـــاوزه فقـــالوا فيـــه: (عـــالم الـــديار الـــسنارية وعلامـــة الأقطار الإسلامية) [2].

وممـــا لا شـــك فيـــه أن رجـــلاً علـــى هـــذا القـــدر مـــن العلـــم والمعرفـــة والـــشموخ لابـــد وأن تكـــون مواقفـــه ثابتـــة وفتـــواه صـــادقة، الأمـــر الـــذي أدى إلى وقـــوع خـــلاف كـــبير بينـــه وبـــين الـــسلطان بـــادي أبـــو شـــلوخ (١١٣٦ – ١١٧٥هـــ) (١٧٢٤ – ١٧٦٢م) الـــذي بـــدأ حكمـــه بالعـــدل بـــين الرعيـــة ولكنـــه في آخـــر أيامـــه كـــان لاهيـــاً فـــأكثر مـــن النـــساء وزاد في ظلمـــه

(١) المصدر السابق، ص١٠٤.

(٢) محمد بن ضيف الله بن محمد الجعلي: الطبقات، تحقيق يوسف فضل حسن، السودان، الخرطوم، ١٩٩٢م، ص٢٩٩، هامش رقم(٢).

للرعية، ولا يخفى أن هذا لربما كان من أسباب الخلاف بين الرجلين، بين عالم متمكن ذو شهرة شقت الآفاق لا يعرف المداهنة ومسح حذاء السلاطين وبين رجل حاكم طغى وتجبر، ولذلك حين قبض عليه قال الخطيب: (عسى أن يكون قتل فقير بخراب أمير) وقد كان [1].

ومن خلال العرض السابق يتجلى لنا أن السودان كان ملجأً للفارين من الاضطهاد السياسي والخلاف المذهبي سواء أكان من الشمال من مصر أو الشام أو الشرق من مكة والمدينة أو العراق وفي ذات الوقت وفي فترات تالية كانت مكة ملجأً آمناً للهاربين من السودان من قبضة السلطات الزمنية. حيث كانت مكة حرماً آمناً يجد فيه الفار بدينه أو بحريته مكاناً وملاذاً آمناً.

ولكن هؤلاء اللاجئون السودانيون لم يكونوا سلبيين ومنعزلين، إنما كانوا في كلا الحالتين فاعلين ذوي روح إيجابية وعطاء ثر، نلحظ ذلك من خلال قول نور الدين اليمني وهو يمدح الخطيب السوداني بقوله (داره أضحت بالعلم روضة) يشير بذلك إلى أن الخطيب لم يكن لاجئاً وإنما كان معطاءً وفاعلاً في المجتمع المكي، حتى غدت داره قبلة لطلبة العلم ومنتدى للعلماء وهذه هي طبيعة العلماء لأن العلم يزيد بالعطاء والإنفاق وينقص بالكتمان.

ولعل الإشارة الواردة في البيت الأخير لها دلالتها (ومن يشبه

(١) المصدر السابق.

الآباء فقد جاء بالفضل) لم يكن الخطيب عبد اللطيف نشازاً وإنما كان له دور يتناغم مع دور أبيه في هذا المجال. إذ كان يدور في فلك أبيه علماً ومعرفة وعطاءً والذي سبقه إلى لعب هذا الدور بمكة حتى أضحى معروفاً لدى علمائها، فقد سافر والده الشيخ عمار بن عبد اللطيف الخطيب إلى مصر والحجاز لطلب العلم ولأداء فريضة الحج. وقرأ في كلا البلدين مكة ومصر جميع العلوم الفقهية والنقلية والعقلية وعلم النحو واللغة والأصول والمنطق والتصوف، وكان متنقلاً بين مكة والأزهر سنين عدداً وجاور بمكة كثيراً (١).

إذن كان هذا الشبل من ذاك الأسد. وكلاهما جاور بمكة وأخذ وأعطى وناقش وأفتى وأفاد واستفاد عطاء متبادل وتجاوب فاعل ينم عن إيجابية حية وقدرة على العطاء لا تعرف الحدود الزمانية والمكانية والعرقية.

ويبدو أن عبد اللطيف بن عمار قد استفاد كثيراً من مكتبة والده والتي جمع فيها كتباً كثيرة من مصر والحجاز أثناء رحلاته إلى مصر ومكة. مما يعني أن مكة كانت أيضاً مصدراً هاماً لاقتناء الكتب. وقد شاركت بدور فاعل في تكوين مضمون الثقافة والفكر بالسودان.

ويتضح هذا الدور في إثراء المعرفة وتشكيل المكون الأساسي من مواعين المعرفة في السودان، فيما قام به الشيخ عبد الرحمن بان

(١) المصدر السابق، ص١١٧.

النقا الذي استأجر النساخ لينقلوا له الكتب فأرسل إلى مصر ومكة طالباً الكتب الغريبة والنادرة وقد كان له ما أراد فملأ ست خزانات (١).

مكة وانتشار المذهب الشافعي بشرق السودان ووسطه:

ومما ينبغي تقريره أن غالبية أهل السودان كانوا ولازالوا يتعبدون ويتمذهبون بالمذهب المالكي إلا أن للمذهب الشافعي وجوداً معتبراً في منطقة شرق السودان، ولعل السبب في ذلك هو تأثر أهل السودان الشرقي بسكان الحجاز واليمن الذين كانوا على صلة تجارية وعرقية وثقافية دائمة سواء في أيام الحج بمكة أو بغرض الزيارة والتجارة. وفي مكة يغلب المذهب الشافعي غيره من المذاهب الأخرى إلا أنه كان موجوداً بقدر ملحوظ ومؤثر.

ولما كانت مكة هي قبلة المسلمين ومهوى أفئدتهم إذ يأتونها من كل حدب وصوب ومن جميع المذاهب والمدارس الفقهية ويتأثرون بما فيها ويؤثرون فيها بما يحملون. لذا لم يصبح المذهب الشافعي هو المذهب السائد بالرغم من الظروف التاريخية والموضوعية للوجود الشافعي بها. إلا أنه من المعروف أن الشافعي قد ذهب إلى اليمن وأقام باليمن زمناً وتزوج باليمن. ولعل ذلك مما يبرر به انتشار المذهب الشافعي بكثافة باليمن، إذ ارتبط الأمر بإقامة وإضافة ومصاهرة ونشر معرفة وعلم. حيث كان يعلم الشافعي الناس الفقه وغيره من

---

(١) جولييت عدلي غابيوس: مصدر سبق ذكره، ص١٨.

العلوم حتى خشي الرشيد من اتساع نفوذه ومن أن يكون موالياً للعلويين يدعو لهم. ومعروف أيضاً أن الشافعي قد رجع إلى مكة من بغداد سنة ١٨١هـ وأقام بها سبع عشرة سنة يعلم الناس العلم، ومن المؤكد أن المذهب الشافعي قد جاء إلى السودان من مصر وانتشر على ضفتي النيل وسنار.

أما في شرق السودان فإن المذهب كان وفوده من قبل الأمم المجاورة للبحر الأحمر ومكة أقواها أثراً حيث كانت أقوى صلة وأعمق أثراً للمجاورة والحج والتجارة والصلات العرقية والنظام السياسي الذي كان يحكم المنطقتين[1]إذ كانت المنطقتان تحكمهما أسرة واحدة وهي أسرة الأشراف، كما كان لهذه الأسرة وجود تاريخي لا تخطئه عين مؤرخ مدقق. ومما تجدر ملاحظته أن مكة كانت ولا تزال تترك أثراً على زائرها، إما ارتقاءً أو هبوطاص فهناك من تفتتنه هذه الزيارة والمجاورة ويتأثر بموروثه الصوفي فيشتط في توجهه مثل ما حدث لأحد المشايخ السودانيين الذين ظهروا في عهد سلطان الفونج بادي الثالث الأحمر (١١٠٠ – ١١٢٧هـ) (١٦٨٩ – ١٧١٥م). وكانت بداية هذاا الشيخ علمية شرعية. ولكنه تأثر بما حوله فانقلب صوفياً يؤمن ويعتقد بما يعتقد به العوام ويدعي حمد النحلان ود الترابي وهو من عرب رفاعة الهوي. سافر إلى الحج وسبعين من تلاميذه. وفي أثناء جواره بمكة ذهب مع خياله الصوفي وربما

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد: مصدر سبق ذكره، ج١، ص١٣٨.

تراءى له شيطانه كما حدث للكثيرين ممن ادعوا المهدية أو رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم وإذنه بفعل كذا وكذا أو أنه المهدي المنتظر.

وفي مكة ادعى هذا الرجل المهدية وهي فكرة لها أصل شرعي ولكنها مرتبطة بقيام الساعة، ولعلها فكرة محورية في كل الديانات السماوية ولكنها في مجملها تعتبر بهذه الصورة التي تراءت لهذا الشيخ تعبيراً عن حالة اليأس والقنوط وتمني زوال الدنيا ونهايتها وإغواء شيطاني وهي بهذه الصورة من باب الاستدراج.

فأرسل حواره ميري إلى سنار ليعلن ظهوره، وكان يأمل أن يستقبل الناس هذا الخبر بقدر من السرور والبشرى، بيد أن الملك بادي الذي كان أكثر وعياً وذكاءً وارتباطاً بالواقع من هذا الشيخ. قتل هذا المبعوث إطفاءً لنار الفتنة التي يمكن أن تحدثها مثل هذه الفكرة الخاطئة والخيال المريض.

والجدير بالذكر أن النحلان حمد الترابي هو الجد الرابع أو الخامس لحسن الترابي[1]. وحمد هذا هو الذي قد اتصف بقدر من الحماقة حيث بنى بعد عودته لنفسه غرفة وأغلقها من جميع الجهات إلا مدخلاً لتناول ما هو ضروري وأغلقها على نفسه احتجاجاً على رفض دعوته وقال لهم: (إذا شممتم نتانة فافتحوها

(١) زعيم حزب المؤتمر الشعبي الذي انفصل عن حزب المؤتمر الوطني الذي أسسه وكان عرابه وفليسوفه دون منازع.

وخذوني وادفنوني) [١].

التصوف والأثر المكي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجري والثامن عشر والتاسع عشر الميلادي:

لا يخفى على فطنة باحث أنه في فترة من فترات تاريخ الأمم الناهضة يعتريها قدر من الركود الفكري وتسيطر عليها ظلامات الفكر الاستسلامي الخنوعي. إذ تفرخ في هذا المناخ أفكار العجز والتشبث بالخوارق لتبديل الحال. وهو قدر من التمرد على الواقع وتعبير دقيق عن العجز وانتظار قوة خارقة ليجري التغيير وتبديل الحال على يديها. وهو في تقدير الباحث أمر مخالف للسنن الإلهية الماضية التي تفترض أن التغيير يلزم أن يقوم به الإنسان (إن اللّٰه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) [٢] وفي هذا المناخ يحدث قدر من النسيان لسنن الملة الماضية القاضية بأن الإنسان هو الذي يغير ما به، فمتى ما عجز عن هذا الدور به آخر في بقعة أخرى من الأرض ممن استعصم بأسباب الحياة وإدراك كنهها وأسرارها.

---

(١) محمد بن ضيف اللّٰه بن محمد الجعلي: الطبقات (تحقيق يوسف فضل). انظر: حمد النحلان. والسؤال هل تأثر الحفيد بجده من حيث الدعوى والمواقف والاستعلاء وحب السيطرة أم لا؟ هذه مسألة تحتاج إلى قدر من الدراسة لعدد من الأسر ذات التاريخ القيادي دينياً وروحياً وسلوكيات أحفادها من أمثال آل المهدي والميرغني وأحمد البشير الطيب وغيرهم كثير.

(٢) سورة الرعد: الآية (١١).

وخلال هذه الفترات تختلط الأوراق فلا يفرق المرء بين الخرافة والحقيقة والكرامة والمعجزة والأسطورة والحق والباطل والهوى والشرع. إذ يلغي الإنسان عقله ويعطل أدوات القدرة لديه على الإبداع والتحليل والتأمل والتفكير فيه. ولقد أظلت العالم الإسلامي سحابة من هذا الفهم السقيم إذ تداخلت الأوراق وتشابكت الاتجاهات الروحية والفكرية. فأضحى العلم الشرعي والمعرفة الإلهية مقترنين بالتصوف وأضحى تدريس التصوف من كمال العلم. وأضحى للحقيقة العلمية وجهان ظاهر وباطن وكذا لنصوص القرءان وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. ولم يكن السودان بدعاً.

وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بدأ الأمر أكثر وضوحاً والظلام أكثر حلكة. ولعل قراءة سريعة لكتاب طبقات ود ضيف يجعل الإنسان يدور ثلاثمائة وستين دورة في الثانية ويفقد وعيه ويسأل نفسه هل هذا حق أم باطل؟ ومن شدة الدوار لا يجد جواباً هل هو في عالم الأرض أم في عالم آخر؟ في هذا الجزء سنتعرض لأهم الطرق التي أضحت لها امتدادات وأضحت ذات أثر في حياة السودانيين وفي تاريخهم الحديث والمعاصر.

١- المجاذيب الشاذلية: [1]

من الطرق المشهورة في السودان طريقة المجاذيب وترجع في نسبها إلى الشيخ عبد الله رجل (درو) جد المجاذيب وهو أول من خطط مدينة الدامر [2] وشيد جامعها العتيق وقد كان زاهداً متعبداً. وقد اشتهر المجاذيب بإيقاد نار القرآن في عهد العنج النصارى. الأمر الذي له دلالة تاريخية هامة إذ يعكس سلمية دخول الإسلام السودان وأن وجوده كان وجوداً ودياً بعيداً عن التشنج. ويصور هذا الوجود التعايش السلمي وعمق روحه لدى أهل السودان مسيحيين ومسلمين. ولعل هذا يفسر التداخل العجيب بين العادات المحلية والتقاليد والأعراف وبين

(١) الشاذلية: تنسب إلى الإمام أبي الحسن الشاذلي (٥٩٠- ٦٦٢هـ) (١١٩٦- ١٢٥٨م) ويعتبر أبا الحسن الشاذلي هو الامتداد السليم لمدرسة الإمام الغزالي (٥٠٥هـ- ١١١م) ولقد انتشرت طريقته في مراكش في القرن الخامس عشر الميلادي على يد أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي مؤلف دلائل الخيرات. ويقال أن إحدى بناته قد تزوجت من الشريف حمد أبي دنانة الذي نزح إلى السودان ومعه ابنة أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي وسكنا في البقعة التي تسمى الآن بالمحمية في شمال السودان وذلك في ١٤٤٥م ثم رسخت أقدام هذه الطريقة قبيل نهاية عهد الفونج على يد الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن المحسي المتوفى سنة ١٧٤٣م والذي له قبر وقبة ومنطقة تسمى باسمه (حلة خوجلي بالخرطوم بحري) وقد كان قادرياً ثم صار شاذلياً. ثم تحولت رئاسة الطريقة من بعده إلى عمه حمد بن محمد المجذوب (١٦٩٣- ١٧٧٦م) الذي أسس عقب عودته من مكة فرعاً شاذلياً جديداً في الدامر سمي بالمجاذيب (عبد القادر محمود: الفكر الصوفي، ص٥٣، بتصرف وإضافة).

(٢) التي تعتبر مدينة دينية هامة وتقع بالقرب من ملتقى عطبرة والنيل على خط ٣٥°، ١٧ شمال شرق. وقد اشتهرت في عهد الفونج بأسرة المجاذيب المشهورين بالعلم والصلاح. انظر: عفاف محمد خيري نصر: دور الطوائف الدينية في العمل السياسي في السودان في الفترة من (١٩١٩- ١٩٥٦م)، السودان، أم درمان، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية الآداب، قسم التاريخ، رسالة دكتوراة ٢٠٠٥م (غير منشورة)، ص٢١.

تعاليم الإسلام في كثير من مناطق السودان حتى بعد قيام الممالك وإرساء قواعدها على مسلمات في الإسلام ظلت تحتفظ بهذا الموروث لقرون طويلة.

ويذكر الشاعر السوداني المشهور في أربعينات وخمسينات القرن الماضي محمد المهدي المجذوب نسبه ونسب عائلته بقوله: (أبي هو الشاعر الفقيه محمد بن الفقيه جلال الدين بن عبد الله النقر بن الفقيه طيب النية الشاذلي بن الفقيه حمد ضمين الدامر بن عبد الله المشهور برجل درو بن محمد بن الحاج عيسى ود قنديل بن حمد بن عبد العال بن عرمان). وتذهب بعض رواياتهم إلى أن جدهم الحاج عيسى هو أول من أخذ الطريقة القادرية حتى ظهر محمد بن محمد المجذوب فتحول إلى الشاذلية الأمر الذي يدل في تقدير الباحث على أن معظم القيادات الصوفية هي شخصيات قلقة. وأن التحول من شيخ إلى آخر أو من طريقة إلى أخرى يشكل ظاهرة في التصوف، تحتاج إلى دراسة أوسع قد لا يتسع لها الزمان ولا المكان. ولكن بعد تحول المجذوب الكبير إلى الشاذلية سافر إلى مكة وجاور بها فترة من الزمن وحدث له نوع من التغيير في اتجاهه التربوي وقدر من التحول فأنشأ فرعاً شاذلياً خاصاً به [1].

(١) نوال عبد العزيز مهدي راضي: أفافيت في تاريخ السودان الحديث، السودان، الخرطوم، جامعة القاهرة، فرع الخرطوم، وحدة الطبع والتصوير، سنة ١٩٨٥م، ص١٠- ١٢.

وهـذه ظـاهرة في كـل الطـرق الـصوفية الكـبيرة في العـالم الإسـلامي إذ لا تـزال هـذه الطـرق تتـشقق وتتفـرع وتتجـزأ تبعـاً لأهـواء القـائمين بأمرهـا دون اسـتثناء، ممـا يعـني غيـاب المـنهج وعـدم وضـوح الرؤيـا وعـدم اسـتنادها علـى أصـول ورؤى محـددة بقـدر مـا تعتمـد علـى ذكـاء وحركـة المؤسـس وأهـواء ونـزوات الأحفـاد مـن بعـده. إذ لم يجـرؤ محمـد المجـذوب الكـبير في بدايـة أمـره علـى إنـشاء طريـق مـستقل، ولكنهـا كانـت خطـوة وأثـراً مكيـاً نحـو الاسـتقلال التـام. وكانـت محاولتـه تلـك قـد أدت إلى صـبغ الطريقـة الـشاذلية بـصبغة محليـة. ونـتج عـن هـذه المحاولـة التدريجيـة تأسـيس الطريقـة المجذوبيـة ومؤسـسها هـو الـشيخ حمـد بـن محمـد المجـذوب الـصغير حفيـد الـشيخ محمـد المجـذوب الكـبير الـذي أدخـل الـشاذلية في أوائـل القـرن الثـامن عـشر المـيلادي بينمـا أسـس حفيـده طريقـة المجاذيـب في أوائـل القـرن التاسـع عـشر المـيلادي. واتخـذت هـذه الطريقـة مدينـة الـدامر الواقعـة جنـوبي عطـبرة مركـزاً لهـا وتم ذلـك أيـضاً بعـد عودتـه مـن مكـة، الأمـر الـذي يؤكـد علـى الأثـر المكي.

وتعـود ملابـسات نـشأة هـذه الطريقـة إلى ظـروف سياسـية تركـت آثارهـا علـى كـل الـبلاد والتكوينـات الـسياسية والروحيـة بـالبلاد. ذلـك نعـني بـه وصـول محمـد علـي باشـا إلى الـسلطة في مـصر حيـث فكـر منـذ اللحظـة الأولى في العمـق الأمـني فكـان الـسودان. ولكـن هـذه المفكـرة لم تخـرج إلى النـور إلا بلقـاءات وتـشجيع مـن زعمـاء سـودانيين كـانوا موجودين بمكة.

وتعود تفاصيل هذه القصة إلى أنه حين حدثت اضطرابات في توارث الحكم في سنار. وهي سنة من السنن الإلهية الماضية في بني الإنسان وفي كل الأسر ذات السلطة والقيادة الزمنية والروحية كما يرى الباحث وذلك في الفترة (١٧٩١ – ١٨٢١م). حيث ساءت الأحوال السياسية بمناسبة هذه الاضطرابات، فهاجر عدد من الزعماء من البيت المالك إلى مكة. وهناك التقوا بمحمد علي في الحجاز خلال حرب الوهابيين وطلبوا منه القدوم إلى السودان لوضع للقلاقل والحروب المحلية بعد أن تعطلت الحياة. ولعل ذلك واحداً من أسباب إرسال محمد علي حملته إلى السودان بقيادة ابنه إسماعيل سنة (١٢٣٣ – ١٨٢١) [١].

وفي تقديري أن الاستعانة دوماً بطرف خارجي ليست من مصلحة الوطن ولا الأمة، ولكنها دوماً تجد العون من طرف داخلي ضعيف لا يقوى على مواجهة الواقع، فيلجأ إلى الاستعانة بطرف خارجي له أجندته وإن التظاهر بنصرة الطرف الضعيف. وبناء على هذا الطلب أرسل محمد علي باشا ابنه إسماعيل باشا في حملة إلى السودان، وقد قابلت هذه الحملة مقاومة شرسة في عدة مناطق من السودان وانتهت بحرقه وجيشه في منطقة الجعليين، الأمر الذي أغضب محمد علي باشا وقرر إرسال حملة تأديبية بقيادة صهره الدفتردار. مما اقتضى فرار قبائل وأسر نحو أعماق السودان والحدود

(١) جولييت عدلي غابيوس: مصدر سبق ذكره، ص٦٩.

الحبشية والبعض الآخر اجتاز البحر الأحمر إلى مكة.

فكان من هؤلاء الفارين بجلدهم أسرة المجاذيب التي فرت إلى الحبشة. أما شيخ الطريقة حمد المجذوب الصغير فقد ترك الدامر وتوجه إلى سواكن ومنها توجه إلى مكة حاجاً ومجاوراً بمكة بالبيت الحرام. وبعد استقرار الأحوال عاد الشيخ حمد المجذوب من مكة إلى سواكن فأسس فيها زاوية للعبادة والتدريس. وبعد عودة المجاذيب من مناطق الشتات سواء في الحبشة أو مكة أو بقاع السودان الأخرى إلى الدامر وتعميرهم لبلدهم تولوا مناصب وظائف القضاء المحلي وقد توفي الشيخ حمد بعد عام واحد من عودته إلى الدامر أي في حوالي سنة (١٢٤٥هـ - ١٨٣٣م).

ومن الآثار المكية الظاهرة على الطريقة المجذوبية أن بور كهاردت قد ذكر أنه كان لدى علماء الدامر (المجاذيب) كتب كثيرة ولكنها جميعاً مؤلفة في العلوم الدينية والفتاوى الشرعية. وقد أحضر هذه الكتب من القاهرة الشبان الفقهاء من أهل الدامر الذين يذهب كثير منهم للأزهر للدراسة أو إلى المسجد الحرام بمكة المكرمة للدراسة والمجاورة معاً وهناك يقضون ثلاث سنوات أو أربع سنوات يتلقون فيها العلم [(١)].

ومما يلاحظ أنه كان للطريقة المجذوبية أثر كبير وسط البجة لاسيما بعد قدوم الشيخ حمد المجذوب الصغير من مكة بعد أن

(١) نوال عبد العزيز: مصدر سبق ذكره، ص١٤.

تحصل على قدر كبير من المعرفة الخاصة بأمور الدين. فلما توفي خلا مركزه بسواكن فاستقدم علي بك دقنة رئيس بندر سواكن الشيخ الطاهر المجذوب من الدامر فحضر وهو غلام صغير فتعلم العلم على يد الشيخ عبد القادر سالم الرضواني وهو من الأرتيقة (الأشراف) ثم أخذ منهم عهد الطريقة.

لقد أسس المجاذيب خلاوي كثيرة في منطقة سواكن وغيرها من مناطق البحر الأحمر لتعليم البجة وصاهروا البجة. ولهم ذرية إلى يومنا هذا بشرق السودان الحالي. ولقد درس على يد الشيخ الطاهر المجذوب الأمير عثمان دقنة أمير الشرق في فترة المهدية (١٣٠٢ – ١٣١٦هـ) (١٨٨٤ – ١٨٩٨م). وكان الطاهر المجذوب أول من بايع عثمان دقنة عند إعلان المهدية وكان ذلك باعثاً قوياً لانضمام الهدندوة تحت إمارة عثمان دقنة [(١)].

ونخلص مما مضى إلى مدارس الدامر أو المجاذيب عموماً قد جمعت بين ثقافة الحجاز وثقافة مصر. وقد تميز شيوخ هذه الطريقة بالعلم والمعرفة ولقد اتخذت هذه الطريقة عكس الطرق الأخرى من المسجد منطلقاً وقاعدة للتربية وعقد حلقات الذكر وحل المنازعات ونسخ المصاحف وتلاوة القرآن.

ويلاحظ أن التعليم في هذه المدارس كان متميزاً كماً ونوعاً إذ يبدأ فيه الطالب بدراسة القرءان حفظاً وتجويداً ثم الفقه والعلوم

(١) بدوي الطاهر: مصدر سبق ذكره، ص٧٤.

الإسلامية على المذهب المالكي وعلم التجويد وعلوم العربية كالنحو والبلاغة. وبعد تخطي الطالب لهذه المراحل يمكنه مواصلة دراسته إن كانت له رغبة في الدراسات العليا وهي قسمان: نظري وهو دراسة كتب الأحياء للغزالي وكتب عطاء الله السكندري. وقسم عملي وهو يتمثل في الصيام وقيام الليل مما يعكس أثراً مكياً واضح القسمات في المنهج والسلوك[1]. إذ يمثل هذا المنهج الصوفية العلمية ويتنافى والصوفية الوراثية صوفية السجادة والتي لا تهتم بالأقدار العلمية والمنهجية الشرعية بقدر ما تقوم على العلم اللدني علم الفيوضات الإلهية وهي نظرية خطيرة لأن العمل وقبوله عند الله تعالى يقوم على قاعدتين أساسيتين أولاهما: الصلاح أي صوابية العمل بمعنى آخر موافقته لفعل وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم. ثانيهما: الإخلاص وهو صدق التوجه.

ويلاحظ أن هناك تزاوجاً متفرداً في هذه الطريقة بين الشريعة والطريقة حيث قد اشتملت على اقتداء كبير بالسنة مما يعكس تأثيراً مكياً جلياً عليها لاسيما بعد عودة مؤسسها من المجاورة بالبيت الحرام لفترة ليست بالقصيرة [2].

ويلاحظ أن الأثر المكي أوضح ما يكون في الجانب الفقهي والعلمي الذي ركزت عليه هذه الطريقة أكثر من غيرها إذا أصبح قادتها هم علماء يفتون في المذاهب عكس الطرق الأخرى الذي يكون

(١) جولييت عدلي غابيوس: مصدر سبق ذكره، ص٧٩- ٨٠.

(٢) نوال عبد العزيز: مصدر سبق ذكره، ص١١٤.

على رأس الطريقة أئمة جهلاء لا يعرفون أدنى وأبسط قواعد العلم الشرعي.

وقد نالت الطريقة المجذوبية في ثوبها الجديد إقبالاً كبيراً لأنه كما مرّ أن شبابها هم فقهاء وهم ممن قضوا سنوات سواء في الأزهر أو في مكة التي لها أثر بالغ في التربية والسلوك والتوجيه وصياغة الشخصية. ولعل من أسباب الإقبال عليها أن المجاذيب قد صبغوا الشاذلية بصبغة محلية واضحة القسمات، فبفضلهم أصبحت هذه الطريقة متميزة عن غيرها لخلوها من المجاهدات المرهقة والمنفردة التي يلجأ إليها الجهال تعويضاً عن جهلهم وفقدانهم للمعرفة والقدر الذي يمكن أن ينوروا به عقول أتباعهم. حيث يلاحظ أن المجاذيب في مقابل سلوك الجهلة من الشيخ كانوا يعنون بعلوم الشريعة والأحكام والفصل في الخصومات وهذه مناطق قفر لدى الطرق الصوفية وأتباعها [1].

من خلال هذا العرض لا ينكر الدور المكي وأثره على هذه الطريقة لاسيما إذا علمنا أن هناك أربعة تيارات قد أثرت بصورة مباشرة في تشكيلة السودان وبنيته الثقافية والروحية بحكم موقعه الجغرافي وبحكم وسطيته التي جعلته أشبه ما يكون ببحيرة تغذيها الروافد من كل الجهات العالية حولها.

---

(١) المصدر السابق، ص١٥.

ولعل أهم هذه الروافد الرافد المصري يليه الرافد الحجازي ثم الرافد المغربي ثم الرافد العراقي. ومن خلال هذا الترتيب يتضح مدى الأثر المكي في تشكيل الشخصية السودانية من حيث الجذور الفكرية والروحية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

٢- الميرغنية [١] (الختمية):

تعتبر الختمية وافداً مكياً من حيث الجذور والثقافة والتوجه والمؤسس، وأصلها جاء عن الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي (١٢١٢ – ١٢٥٠هـ) (١٧٩٧ – ١٨٣٨م) والمدفون بصبيا بعسير جنوب المملكة العربية السعودية والذي كان معلماً دينياً بمكة ومتأثراً بمدرسة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكان الزعيم الروحي للطريقة الخضيرية[٢]. فقد أرسل قبل موته أحد أتباعه ويدعى محمد عثمان الميرغني في رحلة إلى إفريقيا لنشر تعاليم الدين الإسلامي، وقد نجحت رحلته في أسوان نجاحاً منقطع النظير حتى دنقلا وأسرع النوبيون إلى الدخول في طائفته مما شجعه إلى النزول إلى كردفان، ثم امتدت دعوته بعد ذلك حول سنار بعد أن استقر فيها وتزوج ببضع زوجات من بيوتات سنار. وتولى أحفاده بعد أن مات بمكة سنة ١٨٥٣م نشاط

(١) إن هذا الإسم هو نسبة لجدهم السادس وهو تحريف من أمير غني وهي لفظة فارسية بمعنى الشريف الغني، وحرفت فصارت لقباً لأتباعه من أعضاء الطائفة الميرغنية أو المراغنة من أهل البيت. انظر: عثمان سيد أحمد: نشأة الختمية والأنصار، السودان، الخرطوم، د.ن/د/ت. وانظر: أيضاً طارق أحمد عثمان: الطريقة الختمية في السودان (١٨٨١- ١٩٥٥م) السودان، الخرطوم، د.ن، ١٩٩٧م.

(٢) الطريقة الخضيرية والناصرية هما فرعان من الطريقة الشاذلية: انظر: عفاف محمد خيري نصر: مرجع سبق ذكره، ص١٢.

الطائفة التي باتت تعرف بالطائفة الميرغنية[1]. حيث أنجب أبناء وبنات من نساء سودانيات وبذا حدث انصهار عرقي واضح القسمات في أحفاده وذريته من حيث تقاطيع الوجه واللون والشكل.

ويبدو أن محمد عثمان الكبير شأن كثير من مؤسسي الطرق بعد أن رأى النجاح الذي حققه ضن بهذا الجهد لنفسه دون أن ينسبه إلى شيخه الذي كان أساساً قوياً في رحلته وثقافته وتأهيله. مما يؤكد على أن الجانب الدنيوي أكثر بروزاً في نشأة كثير من الطرق وإن تدثرت بدثور الزهد والورع والهروب من الدنيا وملذاتها ولعل هذا الجانب يبدو أكثر وضوحاً في الجيل الثاني والثالث حيث يلاحظ المدقق التكالب على الدنيا والصراع فيما بين الأحفاد حول متاعها وزينتها دون استثناء، إذ يقف خير شاهد على ذلك عائلة الميرغني والمهدي والشيخ أحمد الطيب البشير والشيخ أحمد الهدى السورابي إذ نجد ما يقوم بينهم من عداوات وخصومات ليس مبعثه الدين، وإنما محركه الأساسي الدنيا والمواريث والزعامة. فقد يكون ذلك السلوك تعويضاً عن ما فقدته تلك الشخصيات في المجال العام فأرادت تحقيقه عن هذا الطريق باعتباره أيسر الطرق للسيطرة على الجماهير واستغلالها تحت عباءة التصوف والورع والتقوى والانتساب إلى آل البيت إلى غير ذلك من أدوات الإقناع العام ووسائل الدخول إلى قلوب العامة دون استئذان.

---

(١) عبد القادر محمود: الفكر الصوفي، ص٥٥.

ويـذكر نعـوم شـقير أنـه في سـنة ١٢٣٢هـ - ١٨١٧م حـضر إلى سـنار مـن مكـة الـشريف الـسيد محمـد عثمـان الميرغـني مؤسـس الطريقـة الميرغنيـة في الـسودان وقابـل حكامهـا ودعـا النـاس إلى أخـذ الطريـق فلـم يأخـذ عنـه إلا القليـل. وأرسـل حكـام سـنار الفقيـه إبـراهيم بـن بقـادي ليناظر الـسيد المـذكور. فمـرض حـال وصـوله سـنار عامـاً [1]. وكـان ذلـك في أواخـر سـلطنة الفـونج وقـد انتـشرت هـذه الطريقـة في التاكـا بـين الحلنقـة والـبني عـامر وفي دنقـلا بـين البرابـرة (الحلفـاويين والدناقلـة) وبـين الـشايقية والكبـابيش والبـشاريين، أمـا مؤسـسها فقـد ولـد ودفـن بمكـة، ممـا يعـني أن هـذه الطريقـة هـي وافـد مكـي خـالص مـن غـير منازع فكراً ومنهجاً ومؤسساً [2].

ويمكـن القـول أن صـاحب أي لـون أو بـشرة بيـضاء يـأتي إلى أفريقيـا كـان يـدعي أنـه مـن الأشـراف ويلقـى القبـول لـدى العامـة. وهـذا مـا تمكـن بـه اليهـودي داؤود روبـيني مـن الوصـول إلى سـنار وملازمـة عمـار دونقـس مـدة عـشرة أشـهر وهـو يـصلي ويـصوم دون أن يكتـشف أمـره باعتبـاره شـريفاً. وهـذا القبـول عمومـاً مبعثـه محبـة الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم ومكانتـه في قلـوبهم. وبالتـالي فقـد يـدعى أو ينتـسب إلى الأشـراف مـن هـو لـيس مـنهم ولكنـه بـالرغم مـن ذلـك ينـال قبـولاً مـن

(١) نعوم شقير: تاريخ السودان، اختصار محمد إبراهيم أبو سليم، لبنان، بيروت، دار الجيل، سنة ١٩٨١م، ص١٢٣.

(٢) نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان، القاهرة، د.ن، سنة ١٩٠٣، ثلاثة أجزاء، ج١، ص٢٧٤.

العامة الذين ليست لديهم وسائل تحقق سوى اختلاف اللون ودعوى الشخص هذا الشرف.

ولقد كانت مكة مورداً لهذا النوع من الناس فقد كان موسم الحج بمثابة حركة انطلاق متصل غدواً ورواحاً من السودان والبيت الحرام. وكثير من علماء السودان والوافدين إليه جاءوا عن طريق مكة أو تأثروا بمناخ مكة وبتياراتها الثقافية والفكرية ومناهجها العلمية إذ لم يسلم مفكر أو مرب أو مرشد سوداني أو وافد من أثر مكي [1].

مما لا شك فيه أن السيد أحمد بن إدريس كان يعتبر من أهم الشخصيات المكية الدينية أثراً في السودان وهو يجسد الأثر المكي على السودان، فلقد ولد بقرية ميسور قرب فاس ومنذ صغره نشأ مجبولاً على الاجتهاد في كسب العلوم وقد أخذ الطريق على الشيخ عبد الوهاب التازي ثم وصله بالشيخ أبي القاسم الوزير حيث عاش بالمغرب سنين عدداً من الدرس والتحصيل قبل أن يأتي إلى مصر سنة (١٢١٣هـ – ١٧٩٨م) وإلى مكة سنة ١٢١٤هـ، حيث أقام بمكة ونال بها شهرة كمعلم ديني ما بين سنة (١٢١٢ – ١٢٤٥هـ) (١٧٩٧ – ١٨٣٣م) يلقي فيها دروساً في علوم التفسير والحديث والتصوف السني.

---

(١) عبد القادر محمود: الفكر الصوفي، ص٥٧.

وهـو الـذي أرسـل قبـل موتـه (١٨٣٥ أو سـنة ١٨٣٨) أحـد أتباعـه الكبـار وهـو محمـد عثمـان الأكـبر الميرغـني (رأس الختميـة فيمـا بعـد إلى أفريقيـا لنـشر طريقتـه ذات الـصبغة الـسلفية والـتي مزجـت بـين الـصوفية والتـصوف) ولعـل كتـاب العقـد النفـيس في نظـم جـواهر التـدريس لأحمـد ابـن إدريـس يعكـس هـذا التوجـه الـسلفي الـصوفي الـذي يـشير إلى ضـرورة التقيـد بالكتـاب والـسنة ولا يخـرج عنهمـا قيـد شـعرة حتـى يكـون العبـد جـديراً بالخلافـة في الطريقـة والـدعوة والإرشـاد. ولم يقتـصر الأمـر علـى إرسـال أحـد أتباعـه بـل أن بعـضاً مـن ذريتـه لازالـوا بالـسودان ولهـم وجـود معتـبر في أمـد رمـان في دنقـلا ولهـم مـساجد خاصـة بهـم [1].ولكـن ولاؤهـم للطريقة الختمية.

وممـا لا شـك فيـه أن مـسألة التقيـد بالكتـاب والـسنة هـي فكـرة مكيـة وأثـر وهـابي واضـح لا تخطئـه العـين وهـو مـنهج أبـو حامـد الغزالـي (ت٥٠٥هـــ). وإن كانـــت الختميـــة حـــين أصـــبحت طريقـــة ســـودانية وانفـصلت عـن الأم فقـدت قـدراً كـبيراً مـن هـذه النكهـة الـسنية ذات الدلالة الموضوعية.

(١) عبد القادر محمود: الطوائف الصوفية في السودان وأصولهم وتراثهم وفلسفتهم، مصر، القاهرة، د.ن، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧١م، ص١١٢- ١١٣.

٣/ التجانية أو التيجانية [١] والأثر المكي :

وقد تركت مكة بصماتها الواضحة على كثير من الطرق التي وفدت إلى السودان بخاصة الطريقة التيجانية ذات المبادئ الصوفية السلفية . وهي الدعوة والطريقة التي بدأت سلفية . وإن كان قد ارتدت على أعقابها شأن كثير من الطرق الأخرى من حيث الطقوس والمقالات الخارجة عن حدود الشرع ، والتي هاجر بمبادئها (عثمان دان فوديو) بعد أن رجع وقد فرغ من أداء فريضة الحج وعاد إلى السودان وهو يفيض حماسا وحركة غايتها الثورة على الأوضاع والاتجاهات الوثنية في بعض مناطق السودان ولدى بعض الطرق الصوفية الموجودة في السودان بمعناه الواسع.

وقد شن حملة عشواء على الذين يقدسون المزارات أو يكادون يعبدون الأولياء ويشركوهم مع الله أو من دون الله كما قام بمهاجمة رذيلتين كانتا منتشرتين ببعض مناطق السودان بمعناه الواسع وهما

(١) تنس الطريقة التيجانية إلى أحمد بن محمد بن المختار التيجاني المولود في (١١٥٠هـ- ١٧٣٧م) في مدينة فاس. والتيجانية تنسب إلى قبيلة بربرية جزائرية كانت تقطن بالقرب من تلمسان وتسمى تيجان. وأجداد مؤسسي الطريقة لم يكونوا تيجانيين. بيد أنه قد تزوج من إحدى بنات هذه القبيلة فحصل على لقب التيجاني. وقد ولد أحمد التيداني في مدينة عين ماضي لتي استقر في واحتها أحد أجداد أحمد وقد تأسست هذه المدينة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). وقد بناها ماضي بن يعقوب بالقرب من أحد العيون المائية. فصارت تعرف باسم عين ماضي. انظر: عبد الله عبد الرزاق: الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، مصر، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص٥١، الهامش (١).

شرب الخمر وفساد الخلق [١].

يلاحظ المرء أن هذا التوجه وهذه الدعوات ذات الاتجاه الحياتي الإيجابي البعيدة عن الاستغلال والانعزال هي ذات نكهة مكية اصطبغت بها دروس وتوجهات أحمد بن إدريس وتلاميذه وكل اللذين اتصلوا به في مكة. وهو توجه سني لا يخطئه النظر لدى المؤرخ. وفي النهاية هو أثر وصدى لدعوة محمد بن عبد الوهاب السلفية. وهذه الدعوات هي التي مهدت للثورة المهدية ذات الاتجاه الديني السني والسياسي والاجتماعي الإصلاحي. وقد توالت بعدئذ الهجرات الصوفية من مصر والحجاز والعراق. وفي كل الأحوال كان لمكة القدح المعلى والدور البارز.

٣- الطريقة السمانية [٢] والأثر المكي:

ومن الطرق المشهورة في السودان والتي كان لمكة أثر بالغ

(١) عبد القادر محمود: الفكر الصوفي، ص٥٦- ٥٧. وانظر: عفاف محمد خيري نصر، مرجع سبق ذكره: الإدريسية والدويحية والرشيدية.

(٢) تنسب هذه الطريقة إلى مؤسسها محمد بن عبد الكريم السماني (١٧١٨- ١٧٧٥م) في المدينة المنورة وكان تابعاً للطريقة الخلوتية التي أسسها عمر الخلوتي. وقد انتشرت في تركيا والحجاز والهند لوقت قصير وكان السمان أحد أتباع مصطفى كمال الدين البكري المتوفى سنة (١١٧٠هـ- ١٧٥٩م) الذي كان يسلك الطريقة والذي اتجهت على يديه الخلوتية إلى طريق إحياء الدين ونشره. وبعد موت البكري تفرعت الطريقة إلى ثلاثة فروع وهي (الهناوية) و (الشرقاوية) و (السمانية) على يد محمد الحسن السمان الذي كان بالمدينة المنورة وسجل للسودان ثلاث زيارات: انظر: إبراهيم شحاته حسن: مصر والسودان ووجه الثورة في نصيحة العوام، مصر، الإسكندرية، د.ن، ١٩٧١م، ص١٣٠- ١٣١.

عليها الطريقة السمانية وكان رائدها هو الشيخ أحمد الطيب البشير الجموعي (راجل أم مرح). ولد على الجانب الغربي من النيل بجهة أم مرح بمنطقة الروراب حالياً شمال أمد رمان سنة (١١٥٥هـ – ١٧٤٢م) وحفظ القرءان بمسجد جده الشيخ محمد ولد سرور. وبعد تحوله إلى عدد من الشيوخ شأن طلبة العلم والعلماء بالسودان هاجر إلى مكة حاجاً وزائراً ومعتكفاً وطالباً للعلم والمعرفة. وهي مسألة ضرورية وهامة كما رأينا من خلال هذا البحث فإن العالم السوداني ذا القدر لا يكتمل إعداده وتأهيله وكذا التربوي إلا بمجاورته مكة والتلقي من علمائها وشيوخها.

فهذا قدر تجميلي تحسيني لابد منه لكل مرب أو مرشد أو عالم ذي مكانة في السودان. الأمر الذي قد يكون متواتراً وبصمة مكية أثرت في وجدان السودان وأهله كما أثرت على صياغة فكره وماضيه وشكلت حاضرة.

وفي مكة التقى الشيخ أحمد الطيب الشيخ إبراهيم الريس الزمزمي المكي الشافعي والشيخ محمد بن عقيلة المكي والسيد عبد الله الميرغني ثم صحب الشيخ عبد الرحمن العيدروس فأخذ عنه الطريقة النقشبندية كما أخذ عن الشيخ مصطفى البكري الخلوتية[1]. الأمر الذي يدل في تقديري على قلق نفسي وخواء روحي إذا لم يجد المريد الباحث ما يطمئنه فإنه يتحول إلى شيخ آخر. وأحياناً

(١) عبد القادر محمود: الطوائف الصوفية، ص٣٤- ٣٥.

يأخذ طريقتين في آن واحد. ذلك لأن المناخ الذي كان يتنفس فيه هؤلاء الأشخاص كان مناخاً غير صحي واتباع الطريقة لازمة من لوازمه. فالعقل محجور وتسليم مغاليقه لشخص آخر هو الصورة المثلى في نظر ذلك العصر وأهله. الأمر الذي يدل على قدر من القلق العام وتأثير البيئة وما كان يكتنف العالم الإسلامي من تيارات ثقافية تفرض على كل من نال قدراً من العلم والمعرفة أن يختم ذلك باتباع وملازمة شيخ طريقة صوفية. ولكن ذلك كان قدراً من الأقدار التاريخية في فترات العجز وفقدان القدرة على الإبداع وإدراك فقه الواقع وفق مقتضيات النصوص أو تفسيرها وفق مقتضى السنن الإلهية الحتمية الماضية في الأمم.

وقد التقى الشيخ قبل أخذ الطريقة الشيخ عبد الله بن سلام البصري والشيخ عطا الله المصري والشيخ أحمد الأسيولي. ثم ذهب إلى المدينة فلزم الشيخ محمد عبد الكريم السمان سبع سنوات وأخذ عنه الطريقة السمانية ومن ثم وجهه شيخه بالتوجه إلى بلاده لأداء رسالته الدينية، والصوفية التي أخذها هذا الشيخ هي مزيج مكي ومدني. وبعد عودته إلى السودان اشتغل بتدريس الحديث والتفسير والتصوف في جامع جده الشيخ محمد ولد سرور. وأخذ ينتقل بين أقاليم السودان المختلفة يلتقي بأعلام الصوفية في عصره من أمثال الشيخ حمد المجذوب. ثم هاجر بعد ذلك إلى الحجاز مرات أخرى

لزيارة مكة ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم [١].

مما لا شك فيه أن وجود تدريس الحديث والتفسير متداخلاً مع سلوك التصوف في هذه الطريقة هو أثر حجازي. وينم عن صحة التوجه وهو أثر مكي يشير بتوجه سني سلفي. وهو من الآثار الإيجابية التي تركتها ووضعت بصماتها بوضوح وجلاء دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودروس الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي. إذا تأثر كل الدعاة والمربين والمرشدين ورجال الطرق بصورة مباشرة أو غير مباشرة بهذه الدعوة إما بدافع الدفاع أو الاتباع.

ويبدو ذلك أكثر وضوحاً وجلاءً من خلال الإطلاع على مؤلفات هذه الطريقة والتي أهمها الجوهر الفريد في علم التوحيد. ونلاحظ أن مؤسسها في السودان الشيخ أحمد الطيب البشير كان متأثرهاً وملتزماً بمنهج شيخه بعدم الخروج عن الاتباع والتزام مبدأ الاقتداء [٢] ولكنها قد أصابها ما أصاب أخواتها في عهد الأحفاد من تشقق وتشرنق وخصومات وعداوات بين الأحفاد.

(١) عبد القادر محمود: الطوائف الصوفية، ص٣٥.

(٢) المصدر السابق، ص٣٦.

مملكة تقلي والمحمل المكي:

كما قدمنا أن السودان كان داعماً قوياً لاقتصاد مكة، وبالرغم من أن الممالك الإسلامية ذات الأثر في تكوين السودان الحالي ثقافياً وروحياً وعرقياً واجتماعياً كانت ممالك مستقلة لا تتبع لأي سلطان على وجه الأرض يومئذ ولكنها فرضت على نفسها التزاماً أدبياً وأخلاقياً. ومن هذه الممالك الإسلامية مملكة تقلي الإسلامية التي قامت في جبال النوبة ودامت مدة تزيد على قرنين من الزمان، ومنذ قيامها كان التزامها واضحاً وصارماً تجاه مكة والمدينة وذلك بإرسال وصرة سنوية.

ومما يحكى أن ملوك تقلي كانوا لا يرضون التبذير أو الكفر بالنعمة حيث نما إلى علم الملك ناصر ملك تقلي الإسلامية طغيان أحد الرعية وتبذيره وإسرافه فأرسل إليه فرقة للقبض عليه وتجريده من كل ما يملك. وبالفعل تم ما أمر به. فلما أحضر المتهم أمام الملك لامه جداً، وقال له: كل هذه النعمة التي كفرت بها فإننا نرسلها في صرة الحرمين. وأما أنت فهاك هذا العبد وهذا الخادم وحشاشه (آلة قاطعة) واذهب واخدم واسع من جديد وحذره من استخراج الذهب والحديد الذي كان سبباً في طغيانه، وتمت مصادرة كميات كبيرة من الذهب من هذا الرجل الذي طغى استخدام الذهب

في شكل أوان [1] وتم إرسال ذلك مع المحمل إلى الحرمين الشريفين.

تدل هذه القصة على مدى الاحترام والمكانة بل المساحة الممنوحة لمكة في وجدان السودانيين ملوكاً ورعية وتدل على عمق الرابطة بين مكة وكل الممالك الإسلامية في السودان على اختلاف أزمانها وأنظمتها.

***

(١) عبد القادر محمد عبد القادر: دورة مملكة تقلي الإسلامية، السودان، الخرطوم، سنة ١٩٩٤م، ص١٠٤.

مكة والعلاقات التجارية:

إن العلاقات التجارية بين مكة والسودان كانت عصب الاقتصاد المكي حيث كانت صادرات السودان المتمثلة في السمسم والقمح والعسل والذهب من سنار والسنا مكي وريش النعام الذي يجلب من دارفور والمواشي من كردفان. وكانت هذه المنتجات تصدر إلى الحجاز والهند ومصر. وكان القائد المهدوي المشهور الأمير عثمان دقنة تاجراً يقوم بالتبادل التجاري مع الحجاز [1].

ومما ينبغي تقريره أن سنار قد احتلت موقعاً طبيعياً ممتازاً منذ أن قامت على النيل الأزرق إذ كان التجار يأتونها بالبضائع من مصر والحجاز (مكة) والهند عن طريق النيل والبحر الأحمر. وقد كان لذهب سنار الذي يأتيها من فازوغلي وبني شنقول أهمية كبيرة في تجارتها الخارجية. وقد لاحظ داؤود روبيني الذي أتى لسنار قادماً من مكة أن الملكة وعامة الإماء في سلطنة سنار كن يتزين بالحلي الذهبية حتى صنعن منه ملابس. وهذا الذهب يشتريه تجار سواكن ويحملونه إلى جدة ومنها إلى مكة. ومما يدجل على كثرة الذهب أنه عندما حاصر الفونج جبلي سقدي وموية (٩٦٦هـ - ١٥٥٤م) أسروا زعيميهما وقادوهما مقيدين بسلاسل ذهبية إلى سنار [2].

وكذلك اشتهرت سنار بتجارة العاج والأبنوس وكان الأبنوس

(١) بدوي الطاهر: مصدر سبق ذكره، ص٦٨- ٦٩.

(٢) جولييت عدلي غابيوس: مصدر سبق ذكره، ص٩٧.

يصدر إلى جدة ومن جدة إلى مكة. وكذلك تجارة الجلود التي كان يصنع منها الأحذية والأكياس الجلدية التي تباع في اليمن ومكة وتستعمل في حمل المؤن في السفر بالإضافة إلى العسل والإبل والذرة الذي كان يستورد بكميات كبيرة من سنار ويصدر إلى جدة ومكة [١].

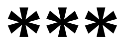
ولقد ظلت لسواكن صلات حميمة وذات طبيعة خاصة ومتميزة مع مكة للأسباب التي قدمناها. وقد وفد على سواكن تجار من اليمن والحجاز أقاموا فيها إقامة دائمة بل أن عميد التجار بسواكن هو محمد بك الشناوي فقد كان حجازياً مكياً. وهو صاحب وكالة الشناوي الشهيرة. وكانت له صلات تجارية واسعة مع الهند والشرق الأقصى ومركزه سواكن. كما كان له أسطول من السفن التجارية وهو صاحب القصر الشهير بسواكن والذي يتكون من (٣٦٥) غرفة[٢]. ويصف بوركهاردت النشاط التجاري بسواكن حيث قال: كانت تمد الحجاز بالقرب والحقائب الجلدية وجلود الحيوانات والحصير المصنوع من سعف الدوم (المقل) وفي المقابل كان تجار سواكن يشترون من جدة ومكة جميع البضائع الهندية والملابس وأدوات الزينة للنساء والسكر والبن والتمر والحديد [٣].

(١) المصدر السابق، ص٨٠.

(٢) نعوم شقير: مصدر سبق ذكره، أبو سليم، ص١٨٢.

(٣) جولييت عدلي غابيوش: مصدر سبق ذكره، ص١٠١.

إن هــذا القــدر وهــذا الكيــف مــن التواجــد المكــي بالــسودان والتواجــد الــسوداني الكثيــف بمكــة عــبر التــاريخ يؤكــد علــى متانــة العلاقــة ويــدل علــى الأثــر المتبــادل بــين كــل مــن مكــة باعتبارهــا مركــزاً ومحــوراً هامــاً. والــسودان باعتبــاره مــورداً اقتــصادياً وبــشرياً هامــاً كمــا يؤكــد علــى وجــود تبــادل منــافع. فعــبر التــاريخ ازدادت هــذه العلاقــة متانــة وقــوة منــذ أن أطلــت هــاجر أم العــرب مــن الــسودان علــى مكــة ومنــذ أن أذن إبــراهيم في بيــدائها كــان الــسودان هــو الأقــرب لمكــة وكانــت مكــة هــي الأقــرب للــسودان دون منــازع وأضــحت هــذه العلاقــة هــي علاقــة عــضوية يلجــأ المــضطهدون مــن مكــة إلى الــسودان ويــستجير المــضطهدون مــن السودان بجوار مكة.



نتائج البحث:

١- توصل البحث إلى أن المصطلحات التاريخية والجغرافية التي تم إطلاقها على المنطقة هي مترادفة معنى وأن اختلفت لفظاً (السودان/ أثيوبيا/ النوبة/ كوش/ الحبشة) .

٢- الشعبية ميناء ومنفذ مكة الوحيد لعدة عقود من الزمان من الناحية الجغرافية هي أقرب إلى السودان الحالي وإلى مينائه عيذاب التي تقع شمال بور تسودان الحالية من أي بقعة أخرى على الساحل الغربي للبحر الأحمر. ولاسيما الحبشة الحالية وإريتريا وميناؤها مصوع. مما يؤكد على صحة الافتراض القاتل بأن الهجرة الأولى والثانية من مكة كانت إلى السودان الحالي إلى منطقة البجراوية .

٣- أن لفظة (بكة) (وكعبة) هي مصطلحات نوبية وليست عربية نطقت بها هاجر كما أن لفظة (زمزم) هي الأخرى لفظة نوبية تعنى (إهدأ) أي حين انهمر الماء قالتها هاجر طالبة من الماء الهدوء

٤- أن وجود ألفاظ نوبية بالقرآن الكريم كما ذكرنا أهل علوم القرآن وأحصوها تعد دلالة واضحة على الرباط العضوي والمعرفة التاريخية والرباط والتاريخي بهذه المنطقة أكثر من غيرها .

٥- من خلال البحث أتضح أن العلاقة المكية السودانية هي علاقة أزلية أسها الاقتصاد والاجتماع والثقافة والأعراف والدين والدم .

٦- كان السودان الحالي دعما قوياً وأساسياً من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية لمكة عبر التاريخ . تمثل ذلك بوضوح وجلاء في المحمل السنوي سواء أكان من دارفور أم من سنار . حيث درجت سلطنة الفور خلال خمسمائة عام على إرساله طوعاً واختياراً لدعم مكة اقتصاديا بمواد تموينية وتجارية وعوائد نقدية . كما ظلت سنار تداوم على إرساله مدة ثلاثة قرون متطاولة دون انقطاع دون من أو أذى .

٧- إن قصة جعفر بن أبي طالب مع النجاشي وتلاوته لسورة مريم دون مترجم تدل على معرفة لغوية من فبل السودانيين باللغة العربية صحيح حيث أن أبا طالب قد بعث للنجاشي بقصيدة من العربي الفصيح . كما ترجمة معاهدة البجة في عهد كنون بن عبد العزيز من قبل قرشيين وبطون قرشية تؤكد على التداخل اللغوي والمعرفة اللغوية لكل من الطرفين بلغة الآخر .

٨- كان ميناء عيذاب ميناء عالمياً ولكنها في الوقت ذاته أهم منفذ يطل على مكة ويؤثر على أقدارها الاقتصادية والتجارية ويشكل أقوى داعم لها حيث كان يقوم بفرض رسوم على كل حاج يقدم من السودان أومن مصر أومن المغرب أومن غرب أفريقيا ويسلم الناتج لمكة كاملاً غير منقوص .

٩- ظلت لمكة هيمنة روحية وسياسية على سواكن فترة طويلة من الزمن . بل أن جزءا من أشراف مكة كانوا هم الحكام عليها ، وقد تصاهروا وتزاوجوا مع أهلها الأصليين مما اقتضى هجرة

أبناء عمومتهم إلى هذه المنطقة وظل لهم وجود بشرق السودان إلى يومنا هذا .

١٠- أن معظم القيادات السياسية والاجتماعية والثقافية والسودانية قد تأثرت بوادر مكة أو بورودها عليها فأي شيخ أو مفكر ذي قدر لا يكتمل دوره إلا إذ جاور مكة سنين عدداً .

١١- لقد كانت مكة منفذا لكثير من الطرق الصوفية التي جاءت إلى السودان عبر قادتها وتلاميذهم سواء أكانوا عابرين لمكة أو مقيمين فيها فشكلت مكة رافداً قوياً للطرق الصوفية السودانية بصورة أو أخرى دون منازع .

١٢- لم يكن السودان في كل الظروف متلقياً على الدوام وإنما أصبح لاحقاً مصدراً للتصوف إلى مكة وبالتالي يمكن القول أن السودان قد أخذ من مكة وأعطاها كما أخذت منه وأعطته فشكل ذلك قدراً متبادلاً في مجال العلم والمعرفة والتصوف .

توصـــيات :

١- الاهتمـام بالدراسـات البينيـة الـتي غايتهـا توطيـد وتجـذير العلاقـات وتقويتها. لا سيما بين مدن تربط بينها علاقات تاريخية .

٢- تـشجيع الدراسـات الاجتماعيـة والثقافيـة والتربويـة الـتي تـدعم اتجـاه التقارب والتواصل بين شعوب ودول الجوار .

٣- نـــشر أبحـــاث هـــذه النـــدوة في موقـــع يـــصمم لهـــذا الغـــرض علـــى الـــشبكة الدوليـــة بعـــدة لغـــات . وإيـــداع النـــسخة الورقيـــة في المراكـــز والمكتبـــات الجامعيـــة العربيـــة والإســـلامية والأجنبيـــة لإعانـــة الباحثين وتعريفهم بأهمية هذا الموضوع .

٤- إنـشاء أمانـة عامـة تحـت أسـم أمانـة النـدوة العالميـة لمكـة عاصـمة الثقافـة تكـون مكـة هـي مقـر هـذه الأمانـة . والـتي أقـترح أن تكـون عـــضويتها مـــن الشخـــصيات ذات الـــوزن الأكـــاديمي مـــن معظـــم الأعـــضاء المـــشاركين . ويكـــون مهمتهـــا التوثيـــق لكـــل مـــا يتـــصل بمكة تاريخياً وثقافياً ودينياً واجتماعياً واقتصادياً .

٥- العمـل علـى عقـد نـدوة دوريـة كـل ثـلاث سـنوات تحـدد محاورهـا قبـل سـتة أشـهر مـن عقـد النـدوة . ومحاولـة اسـتقطاب الـدعم لهـا مـن قبل شخصيات اعتبارية ومؤسسات ودول وجامعات .

٦- تـــشجيع الدراســـات الأثريـــة الإســـلامية ذات البعـــد المكـــي لكـــشف كـــثير مـــن الحقـــائق وضـــبط كـــثير مـــن الوقـــائع التاريخيـــة الـــواردة في كتب التراث الأدبي والتاريخي أو الشرعي .

٧- خلق رابطة بين أمانة هذه الندوة ومراكز البحث العلمي في معظم الدول الإسلامية والعربية والأوروبية والأمريكية في محاولة لتوجيه الدراسات والبرامج التي يمكن أن تخدم هذه الأهداف .



المصادر والمراجع

أولاً المصادر الأولية :

أ/ وثائق ومخطوطات

١- خابات من والي السلطان علي دينار (١٨٩٩ – ١٩١٦م) وهي وثائق منظمة ومرتبة تاريخياً /السودان/ الخرطوم/ دار الوثائق القومية .

٢- مطبوعات تقارير المخابرات السودانية (الثنائية الانجليزية المصرية) (١٨٩٨ – ١٩١٦م) /السودان/ الخرطوم/ دار الوثائق القومية .

٣- أوراق سلاطين باشا الرسمية وهي عبارة عن خطابات (١٩٠٠ – ١٩٤٠م) – إنجلترا/درم (درهام) / مكتبة الدراسات الشرقية .

٤- أوراق سلاطين باشا شخصية وهي عبارة عن مذكرات يومية (١٩٠٩م) وخطابات لأقاربه (١٩١٤م) إنجلترا/درم (درهام) / مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية .

٥- خطابات السلطان إبراهيم فرض آخر سلاطين الفور للفترة الأولي (١٨٨٧م) مصر / القاهرة/ الدار القومية المصرية للوثائق بالقلعة .

ب – الرسائل الجامعية (غير منشورة) : –

٦ – بدوي الطاهر بدوي : المكونات الحضارية لمدينة سواكن السودان/ أمدرمان / جامعة أم درمان الأسلامية / معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي سنة ٢٠٠٤م رسالة دكتوراة (غير منشورة) .

٧ – جولييت عدلي غابيوس : علاقات دولة الفونج ببلاد العرب (٩١٠هـ – ١٥٠٥م) السودان / أمد رمان/ جامعة الزعيم الأزهري/ كلية التربية ٢٠٠٤م رسالة دكتوراة (غير منشورة) .

٨ – سيد أحمد على عثمان العقيد : سياسة الفور الخارجية (١٨٩٨م – ١٩١٦م) المملكة العربية السعودية/ الرياض/ جامعة الملك سعود/ كلية الآداب/ قسم التاريخ/ رسالة ماجستير ١٩٨٤م (غير منشورة) .

٩ – سيد أحمد على عثمان العقيد : العلاقات المهدوية الحبشية /السودان / أمدرمان/ جامعة أمدرمان الإسلامية/ كلية الآداب/ قسم التاريخ والحضارة الإسلامية / رسالة دكتوارة ١٩٩١م (غير منشورة) .

١٠ – عبد الرحمن حسب الله الحاج أحمد : العلاقات بين العرب وشرق السودان منذ ظهور الإسلام وحتي ظهور الفونج / مصر/ القاهرة/ كلية الآداب/ قسم التاريخ/ رسالة دكتوارة سنة ١٩٧٩م (غير منشورة) .

١١ – عفاف محمد خيري نصر : دور الطوائف الدينية في العمل السياسي في السودان في الفترة من (١٩١٩ – ١٩٥٦م) السودان / أمدرمان/ جامعة أمدرمان الإسلامية/ كلية الآداب/ قسم التاريخ/ رسالة دكتوارة ٢٠٠٥م (غير منشورة) .

ج – القرآن الكريم :–

ثانياً الكتب :–

١- ابن الأثير المحدث : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري (٥٤٤ – ٦٠٦هـ): جامع الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم / تحقيق عبد القادر وشعيب الأرناؤوط/ سوريا/ دمشق/ مكتبة الحلواني ودار البيان سنة ١٩٧٢م .

٢- أحمد الحنفي : أحمد بن محمد كرام الغنائي الأزهري (١٣٢١هـ – ١٩٠٣م) : الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان / مصر/ القاهرة / مطبعة بولاق ١٩٢٠م .

٣- أحمد القلقشندي : أحمد بن على بن عبد الله القلقشندي (٧٥٦ – ٨٢١هـ): صبح الأعشى في كتابة الإنشاء / مصر/ القاهرة/ المطبعة الأميرية سنة ١٩١٣م .

٤- الإصطخري : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٤٦هـ): المسالك والممالك / مصر/ القاهرة/ دار القلم ١٩٦١م .

٥- البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة

الجعفي (١٩٤ – ٢٥٦هـ): صحيح البخاري/ تركيا/ اسطنبول/ د.ن /١٩٧٩م .

٦- ابن بطوطة : شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله البواتي الطنجي (٧٠٣ – ٧٧٧هـ): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار /مصر/ القاهرة/ د . ن/ ١٩٢٨م .

٧- ابن بطوطة : مهذب رحلة ابن بطوطة / تهذيب أحمد العوامري ومحمد أحمد جار المولى /مصر / القاهرة/ المطبعة الأميرية ١٩٤٣م .

٨- ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (٥٣٩ – ٦١٤هـ) (١١٤٤ – ١٢٢٧م). رحلة بن جبير /لبنان/ بيروت/ دار الشرق العربي (د.ن).

٩- ابن جبير : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار /لبنان/ بيروت/ (د.ن). ١٩٦٨م .

١٠- ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني (٧٧٣ – ٨٥٢هـ): فتح الباري شرح صحيح البخاري/ تحقيق عبد الله بن باز / المملكة العربية السعودية/ الرياض / رئاسة إدارة البحوث والإفتاء/ (د.ن) .

١١- ابن خلدون : ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد التونسي (٧٣٢ – ٨٠٨هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر/ لبنان / بيروت / (د.ن) ١٩٥٧م / سبعة أجزاء.

١٢- السيوطي : جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر محمد الخضيري (٨٤٩ – ٩١١هـ): الإتقان في علوم القرءان/ لبنان/ بيروت/ مكتبة دار الهلال/ (د.ت)/ (د.ن) / جزءان .

١٣- الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير بن زيد الآملي (٢٢٤ – ٣١٠هـ): تاريخ الأمم والملوك/ لبنان/ بيروت/ (د.ن) ١٩٧٨م .

١٤- ابن العربي : أبو بكر بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي (٤٦٨ – ٥٤٣): أحكام القرءان/ تحقيق على محمد البجاوي/ لبنان/ بيروت/ دار الجيل ١٩٨٨م أربعة أجزاء .

١٥- أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن يعقوب الشافعي (٧٣٢ – ٨٠٨هـ): تقويم البلدان /فرنسا/ باريس/ (د.ن) ١٩٤٠ .

١٦- أبو الفرج الأصبهاني : علي بن الحسين بن محمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان البغدادي (٢٨٤ – ٣٥٦هـ): الأغاني /مصر / القاهرة/ مطبعة بولاق ١٩٠٥م .

١٧- محمد الحسني : محمد بن أحمد الحسني المالكي (٥٧٥ – ٨٣٢هـ): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام/ مصر / القاهرة / (د.ن) / ١٩٥٦م / جزءان .

١٨- المسعودي : أبو الحسن على بن الحسين بن علي الشافعي (ت ٣٤٦هـ – ٩٥٦م): مروج الذهب ومعادن الجوهر/ تحقيق :

محمد محي الدين/ مصر/ القاهرة/ مطبعة السعادة ١٩٤٨م .

١٩- المقريزي : تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد الحسني العبيدي (٧٦٦ – ٨٤٥هـ): البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب / تحقيق : عبد المجيد عابدين/ مصر/ القاهرة/ دار المعارف ١٩٦١م .

٢٠- المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك/ تحقيق : محمد مصطفى زيادة/ مصر / القاهرة/ (د.ن) / ١٩٤٣م .

٢١- المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار/ تحقيق : محمد زينهم ومديحة الشرقاوي/ مصر/ القاهرة / مكتبة مدبولي ١٩٩٨م .

٢٢- النووي : أبو زكريا يحي بن شرف بنمري بن الحسن الحزامي الحوراني الشافعي (٦٣١ – ٦٧٦هـ): شرح صحيح مسلم / المملكة العربية السعودية / الرياض/ دار البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد/ (د.ن) .

٢٣- ابن هشام البصري : جمال الدين أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت ٢١٣): السيرة النبوية/ مصر/ القاهرة/ دار المنار ١٩٩٣م .

٢٤- ود ضيف الله : محمد بن ضيف الله بن محمد الجعلي الفضلي (١١٣٩ – ١٢٢٤هـ): كتاب الطبقات في خصوص الأولياء

والصالحين والعلماء والشعراء في السودان / تحقيق إبراهيم صديق احمد /لبنان/ بيروت/ المكتبة الثقافية / (د.ن) .

٢٥- ود ضيف الله : كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان/ تحقيق : يوسف فضل حسن / السودان/ الخرطوم/ جامعة الخرطوم ١٩٨٥م .

٢٦- ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (٥٧٤ – ٦٢٦): معجم البلدان مصر/ القاهرة/ (د.ن). ١٩٠٦م .

٢٧- يوسف بن المجاور : يوسف بن يعقوب بن محمد بن علي الشيباني الدمشقي (٦٩٠هـ): صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز والمسماة تاريخ المستبصر / هولندا/ ليون/ (د.ن) / ١٩٥١م .

٢٨- بوركهاردت : جيمس لويس : رحلات في بلاد النوبة/ ترجمة فؤاد اندراوس/ مصر/ القاهرة/ د.ن/ ١٩٥٩م ص ١٢٣ .

ثالثا : المراجع العامة العربية :

١- أبراهيم شحاته حسن (دكتور) : مصر والسودان ووجه الثورة

في نصيحة العوام / مصر / الإسكندرية/ د.ن / ١٩٧١م .

٢- إبراهيم على طرخان (دكتور) : الإسلام بالحبشة من العصور الوسطي / السودان/ الخرطوم/ جامعة القاهرة / فرع الخرطوم ١٩٥٧م .

٣- أحمد أمين (دكتور) : فجر الإسلام / لبنان / بيروت/ دار الكتاب العربي / ١٩٦٩م.

٤- أحمد شلبي (دكتور) : موسوعة التاريخ الإسلامي / مصر / القاهرة / مكتبة النهضة / الطبعة الخامسة ١٩٩٠م .

٥- أحمد مختار العبادي (دكتور) : قيام المماليك الأولى في مصر والشام / لبنان / بيروت / دار النهضة العربية للطباعة والنشر/ ١٩٩٦م .

٦- أحمد الجاسر : من شمال غرب الجزيرة / المملكة العربية السعودية / الرياض/ (د.ن) . ١٩٦٥م .

٧- ضرار محمد صالح ضرار : هجرة القبائل العربية إلى وادي النيل (مصر والسودان) / المملكة العربية السعودية / الرياض / مكتبة التوبة ٢٠٠١م .

٨- عبد العزيز أمين عبد المجيد (دكتور) : التربية في السودان : الأسس الاجتماعية والنفسية التي قامت عليها / مصر/ القاهرة/ المطبعة الأميرية ١٩٤٩م / ثلاثة أجزاء .

٩- عبد القادر محمد عبد القادر دوره : مملكة تقلي الإسلامية / السودان/ الخرطوم/ (د.ن) . ١٩٩٤م .

١٠- عبد القادر محمود (دكتور) : الفكر الصوفي في السودان: مصادره وتياراته وألوانه / لبنان/ بيروت/ دار الفكر العربي ١٩٦٩م .

١١- عبد القادر محمود (دكتور) : الطوائف الصوفية في السودان أصولهم وتراثهم وفلسفتهم /مصر/ القاهرة/ (د.ن) الطبعة الأولى ١٩٧١م .

١٢- عبد الله عبد الرزاق (دكتور) : الطرق الصوفية في القارة الأفريقية / مصر/ القاهرة/ دار الثقافة للنشر والتوزيع/ الطبعة الأولى ٢٠٠٤م .

١٣- عبد المجيد عابدين (دكتور) : بين الحبشة والعرب / لبنان/بيروت/ دار الفكر العربي/ (د.ن) .

١٤- عون الشريف قاسم (دكتور) : قاموس اللهجات العامية في السودان/ مصر/ القاهرة/ المكتب المصري الحديث/ الطبعة الثانية ١٩٨٨م .

١٥- فيليب رفلة (دكتور) : العلاقات التاريخية والاقتصادية بين الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية السودان / مصر/ القاهرة/ (د.ن). ١٩٦٥م .

١٦- محمد صالح ضرار : تاريخ سواكن والبحر الأحمر /

السودان/ الخرطوم/ الدار السودانية للكتب ١٩٨٨م .

١٧- محمد شفيق غربال (دكتور) : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية / مصر/ القاهرة/ د.ن / ١٩٥٢م .

١٨- محمد عوض (دكتور): السودان الشمالي : سكانه وقبائله/ مصر/ القاهرة/ (د.ن). ١٩٥١م .

١٩- محمد صفي الدين (دكتور): أفريقيا بين الدول الأوروبية/ مصر/ القاهرة/ د.ن/ ١٩٥٩م .

٢٠- نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان / لبنان/ بيروت/ مطبعة دار الثقافة ١٩٧٢م/ ثلاثة أجزاء .

٢١- نعوم شقير : تاريخ السودان/ اختصار: محمد إبراهيم أبو سليم/ لبنان/ بيروت/ دار الجيل ١٩٨٢م .

٢٢- نوال عبد العزيز مهدي راضي (دكتورة) : أفافيت في تاريخ السودان الحديث/ السودان/ الخرطوم/ جامعة القاهرة – فرع الخرطوم/ وحدة الطبع والتصوير ١٩٨٥م .

رابعاً : المصادر الأجنبية :

١ – A ..J . Arkell : A History of The Sudan From The Earliest Times To

١٩٢١, England , London , ١٩٦١. –

٢ – A . Pual : A History of deja tribes of the Sudan , Britain: Cambridge . ١٩٥٤ .

٣ – E . A. Budge A History of the Ethiopia, Nubia , Abyssinia . England : London , ١٩٤٥ .

٤ – Rex . Sean o,fahey : the Growth and development of kira Sultanate of Darfer , (typescript), Britain , London (No – d

٥ – Umer Al nager : the pilgrimage Tradition . in west Africa , Sodan , Khartoum , Khartoum university press ١٩٧٦ .

٦ – E . A Wallies . Bouge . (١٨٥٧ – ١٩٣٤) Egyptian Sodan its history and monument ٢ vols . Boston . public library . new York ١٩٧٦ .

٧ – E . A . Wallies boudge : A history of the Ethiopia Nubia , Abyssinia , England , Cambridge ١٩٧٦ .